روايات عبير



سارة كريفن

قيد الوفاء

قيد الوفاء

وجدت كريستينا نفسها بلا بيت، بلا أقارب، بلا مهنة وبلا مال كخشبة طافية على وجه الماء في بحر هائج. لذلك وافقت بلا تردد على عرض صديقة عمتها بالسفر معها الى جزر البهاماس كمرافقة وسكرتيرة. وهناك تحاول السيدة براندون تزويج كريستينا من حفيدها نيو لتضمن له الميراث.

الا ان ديفلين ابن شقيقتها يكتشف لعبة خالته وما تنطوي عليه خاصة انه الوريث الحقيقي واعتقاده بأنها تحب نيو يمنعه من الاعلان عن عواطفه او الدفاع عن حقوقه.

كريستينا، الوحيدة، الضعيفة تخفي حقيقة مشاعرها تجاه ديفلين وتنساق لرغبات صديقة عمتها السيدة براندون التي ساعدتها في أحلك ظروفها.

ولكن القدر يأبى ان يقع الظلم على قلبين عاشقين فيتدخل في اللحظات الأخيرة.

٥٠٠/ ق

١ - القدر الغامض

- والآن، المجموعة الرابعة والثلاثون! تمثالان صغيران. سيداتي وسادتي، من يحب ان يعرض سعراً؟

وتحولت نبرة بائع المزاد العلني الى همس خافت عندما اغلقت كريستينا وراءها باب غرفة الطعام بهدوء، ومشت بخطى بطيئة عبر الممر الضيق المؤدي الى مدخل البيت الصغير الخلفي.

لقد ارتكبت خطأ فادحاً في البقاء لحضور المزاد العلني. انها تدرك ذلك الآن. حذرها السيد فريث من مغبة تجربة كهذه، تجربة مشاهدة محتويات منزلها معروضة للبيع. وهي التي الفتها طوال ستة اعوام الفة حميمة، يا ليتها اصغت اليه وتوارت عن الأنظار. ولكن عاطفتها كانت اقوى من ان تقاوم. غمرها

شوق خفي لاقتناص فرصة لشراء ولو قطعة صغيرة من تحف عرابتها، لتحتفظ بها كذكرى سعادة غابرة.

ولكن جاءت الأسعار المعروضة لشراء الآنية الصينية، وقطع الأثاث والتحف الأخرى لتذكرها بمدى افلاسها.

كم ستفرح عائلة ويستر بنتيجة المزاد. رأتهم يجلسون في آخر الغرفة، يتبادلون ابتسامات الظفر. كان كل شيء بالنسبة اليهم يسير على ما يرام. ولا يفيدها الآن اقناع نفسها بحقهم الشرعي في التصرف هكذا. لم يدعوا فرصة تفوتهم الا وشددوا على حقهم البديهي. وهي تعرف انها لا تملك اي حقوق من الناحية القانونية، ولا علاقة للمثل الاخلاقية في مثل هذه الأمور.

مشت بكآبة الى المطبخ الخلفي. كان، كبقية البيت، خاوياً من كل قطعة قابلة للبيع. وبدت خزانة الحائط الكبيرة كالحة، مهجورة، لا اثر للآنية الزخرفية والنحاسية على رفوفها.

توجهت الى المغسلة، وفتحت صنبور الماء البارد، ورشفت من راحتيها لتطفىء عطشها، ثم مسحت جبينها بقطرات منعشة.

كانت لا تزال عاجزة عن استيعاب التغيير المفاجىء في حياتها واوضاعها. وعرفت ان عليها التفكير في المستقبل، ورسم خطة ما، تماماً مثلما اخبرها السيد فريث عدة مرات. ولكن كيف؟ بدا لها انها كانت تعيش في سعادة منحتها اياها العمة غريس، تلك المرأة الحنونة والمستبدة في آن معاً، والتي

رعتها بنية حسنة بعد ان اصبحت يتيمة كأفضل عرابة، ولكنها لم تسندها في اللحظة الحاسمة من حياتها.

ولكن، وكما اشارت فيفيان ويستر بأسلوبها المتعالي، ما الذي كانت تتوقعه من امرأة لا تربطها بها صلة قرابة ودم؟ وكانت هذه عبارة السيدة ويستر المفضلة، مع تجنبها الاقتراب من العمة غريس عندما كانت حية، او الاهتمام بها وبصحتها.

ولم تكن العمة غريس، في أي حال، بسيطة العقل. كانت تعرف مدى اعتماد ابنة اختها عليها. وتركت كل شيء في وصيتها لفيفيان ويستر، ولم تذكر كريستينا بخير او شر، وهي التي لازمتها طوال حياتها، وتولت امور البيت الصغير وساعدت عرابتها في كل اعمالها الخيرية. وذكرت نفسها انها لم تكن تطمع في الحصول على شيء. العمة غريس هي التي اصرت دائماً على توفير كل ما تحتاج اليه كريستينا في حالة حدوث شيء طارىء لها، مع انها لم تحدد ما الذي تعنيه بذلك. ورددت كل هذا على مسامعها مرة تلو الأخرى، خاصة عندما كانت تقترح كريستينا حصولها على مؤهلات لمهنة لائقة، فتعترض عليها.

وطالما سمعت الآنسة غرانثم وهو الاسم الأول لعمتها تقول:

ـ لا حاجة الى المؤهلات يا عزيزتي. اعدك انه لن يعوزك شيء. وسوف اولي عناية خاصة لهذه المسألة، لا تقلقي.

وها هي كريستينا الآن تجد نفسها بدون عمل او اي ضمان آخر ومحرومة من الجلوس في بيتها القديم، والتفكير بالمستقبل

بروية. تنهدت بأسى ونظرت من النافذة محدقة في حديقة الخضار الصغيرة حيث صرفت مع العمة غريس ساعات طويلة من العمل المضني الى ان سقطت صريعة مرض عضال.

علت وجهها ابتسامة عابرة وهي تفكر في نشر اعلان صحفي يعلن عن مواهبها الخاصة:

«فتاة كفؤة، في التاسعة عشرة من عمرها، تملك خبرة محدودة في طهي الطعام، وزرع الخضار، والضرب على الآلة الكاتبة، ورعاية المرضى...»

بدا لها ان اللائحة طويلة لا تنتهي. ولكن لا بد لها من الاقرار بعجزها عن اتقان أية مهنة. وهل يوجد شخص آخر يرضى بخدماتها مثل العمة غريس؟ راودتها شكوك كثيرة.

لقد وجدت نفسها تعيش فجأة مع عرابتها عندما تعرضت والدتها لنوبة قلبية، بعد ان فقدت زوجها، وكريستينا لا تزال طفلة صغيرة.

وواظبت كريستينا على الذهاب الى مدرستها، مدركة ان عمتها غريس هي التي تدفع رسوم التعليم، كما كانت تفعل منذ البداية.

وما ان بلغت سن السادسة عشرة حتى طلبت منها العمة غريس التوقف عن الدراسة، وملازمتها في البيت، فتخلت عن متابعة الدراسة وخضعت للأمر الواقع. وهي لا تنكر مدى

راحتها في العيش مع عرابتها، والسكن ضمن اجواء قرية جميلة كانت عمتها احد وجوهها البارزة.

وبذلت جهداً خاصاً لايجاد رابطة ودية بينها وبين عمتها القاسية، وذات الآراء المتزمتة. فقد كانت ضد تحرر المرأة، بأي شكل من الأشكال، وترى ان كل امرأة تحتاج الى رجل ليرعاها ويحميها من «عوادي الزمان»، بدون ان تحدد ما الذي تعنيه تماماً.

ووجدت عمتها من يرعاها في شخص السيد فريث، محامي العائلة، والذي كانت تتقيد بآرائه حول اية مسألة، باستثناء مستقبل كريستينا كما يبدو. وماتت بدون زواج او اولاد. وما ان شيعوها الى مثواها الأخير حتى تقدم السيد فريث من كريستينا ليبدي اسفه وعجزه عن اقناع عمتها لتغيير وصيتها لتشملها ولو على نحو متواضع.

قال لكريستينا بلوعة:

- تظاهرت بعدم سماعي، وانت تعرفين اسلوبها المعهود في هذه الأمور.

لم تجد كريستينا تفسيراً معقولاً لتصرف عمتها. اما السيدة ويبستر فهي لا تعرف معنى الشهامة وسماحة النفس. كان همها الوحيد التخلص من كريستينا بأسرع وقت ممكن، وبدون اظهار ادنى اهتمام بمستقبل فتاة سهرت الليالي للاعتناء بعمتها. ان عليها الآن الاعتماد على نفسها وفق مفاهيم السيدة ويبستر. ولتحمد ربها على بقائها مدة طويلة تعيش بالمجان حياة مرفهة

هنيئة. وهي كما تدل تصرفاتها لا تبدي اي اهتمام بالبيت الصغير او محتوياته، فهي لا ترغب في التخلي عن لندن والانتقال الى الريف. لم تكن السيدة ويبستر مهتمة بأكثر من تحويل ارثها الى عملة صعبة، وبأقصى سرعة.

كانت كريستينا تتمنى ان تحتفظ عائلة ويبستر بالبيت الصغير، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع، واستخدامها لترعى شؤونه اثناء غيابهم. وخابت كل آمالها، كما رفضت السيدة ويبستر ان تساعدها في ايجاد عمل مماثل، واكتفت بذكر بعض مكاتب التوظيف.

اما السيد فريث وزوجته فكانا كريمي الاخلاق، ووعداها باعطائها توصيات ملائمة عندما يحين الوقت. وذهبا الى حد دعوتها للسكن معهما، ساعة يأتي دور البيت الصغير لطرحه في المزاد العلني. لكن كريستينا لم تقبل عرضهما. اعتقدت ان وجهة نظر عائلة ويبستر اكثر عملية لجهة ضرورة تولي امورها بنفسها، ودخول معترك الحياة قبل فوات الأوان. ثمة مجالات كثيرة خارج هذه القرية الصغيرة، وعليها ان تبحث عنها.

وقررت ان اتخاذ الخطوة الأولى هي اصعب مرحلة في اي عمل. وكانت خطوتها الأولى استئجار غرفة في فندق القرية الوحيد، مع ادراكها انها ستكون تدبيراً مؤقتاً. فهي لا تملك الا النذر القليل من الدراهم، وستحتاج صاحبة الفندق السيدة ثرنتون لكل غرفة لاستقبال السياح مع تقدم فصل الصيف.

وظلت كريستينا تفكر في عمتها، وتلك الفرص التي كانت تقتنصها لعقد قرانها، كلما سنحت الظروف، والتقت بشاب. ومع ذلك، لم يستقر رأيها على احد. وهي تعرف انها تتمتع بقدر معين من الجمال، وفقاً لمرآتها التي يتراءى فيها شعرها الأشقر الطويل وتموّج عينيها الخضراوين.

ومنذ وفاة عمتها، اتضح لها ان عدم زواجها يعود الى ادراك معظم عائلات القرية لوضعها الاجتماعي وتواضع امكانياتها المادية. وهي عائلات غنية في معظمها تتوقع مصاهرة من هم بمستوى قريب من مستوياتهم.

شعرت بالألم وهي تفكر في هذا الأمر، وقررت طرد شبحه من ذهنها. ألقت نظرة على ساعة يدها. كان المزاد العلني مستمراً، ففكرت ان تتوارى عن الانظار. فهي لا ترغب في لقاء عائلة ويبستر مرة اخرى، والاصغاء الى الاستفسار عن مدى نجاحها في ايجاد عمل. تنهدت بحسرة. هذه هي الحقيقة المرة فهي حتى الآن تقدمت بطلبات عديدة للعمل، وبدون فائدة.

علاوة على ذلك، يبدو نهارها مملاً، طويلاً. فلتركب القطار الى لندن، وتتصل ببعض مكاتب التوظيف التي ذكرتها السيدة ويبستر. انها الآن وحيدة، وعليها شق طريقها بنفسها، ومهما كانت الصعاب.

ألقت نظرة اخيرة مليئة بالحزن على المكان والحديقة، واستدارت نحو الباب. ثم اكتشفت انها لم تكن وحدها،

وانطلقت صرخة تعجب من فمها. وتراءى لها ان الامرأة الواقفة امامها، كانت تراقبها منذ فترة طويلة.

لم تكن امرأة طويلة، ولكنها قوية الشخصية ترتدي ملابس متقنة، وتتكىء على عصا دقيقة الصنع، مرهفة كالسيف.

نادتها الامرأة باسم عائلتها، وبصوت هادىء خفيض، يرطن بلكنة اجنبية:

- الآنسة بينت؟

ترددت كريستينا، ثم اجابت:

- نعم. ولكن للأسف الشديد لا اعرف...

ابتسمت المرأة بتمهل، كاشفة عن اسنانها البيضاء السوية:

- كما تقولين، لم يسبق لنا التعارف. ولكن اؤكد لك، يا آنسة انني لا اعتبرك انسانة غريبة. ويخامرني شعور بأن صداقتنا قديمة، ومتينة.

اعترت كريستينا الدهشة. فتابعت المرأة:

- اسمحي لي بتوضيح ما اقصد. انا مرسيل براندون، يا آنسة. الم تحدثك عمتك عني ابداً؟

وقالت كريستينا بصراحة:

- لا. ابداً... هل ... هل كنت احدى صديقاتها؟

وجدت صعوبة في تصديقها. كانت عمتها امرأة انكليزية

خالصة، لم تغادر ارض بريطانيا في حياتها، على ما تذكر كريستينا. ويستحيل ان تكون اقامت اي نوع من العلاقة مع هذه المخلوقة الغريبة الاطوار.

هزت الامرأة رأسها:

- كنا في المدرسة معاً، وكذلك اختي مادلين. لم تذكر عمتك شيئاً عنها كذلك؟

بلعت كريستينا ريقها:

- كلا. لا اظن انها اتت على ذكر ايام دراستها. بدا لي دائماً ان لا اصدقاء لها خارج هذه القرية هنا.

- يصح ما تقولين في الفترة الأخيرة من حياتها مع ذلك كنا نتبادل الرسائل لسنوات عديدة. وتلقيت آخر رسالة منها منذ ثمانية عشر شهراً.

صمتت قليلاً ثم ما لبثت ان قالت:

- آسفة لعجزي عن الوقوف على قدمي مدة طويلة. ولا ارى اثراً للكراسي...

اجابت كريستينا بحسرة:

- انك على حق. ان كل شيء معروض للبيع.

- اذن ربما تعرفين مكاناً آخر حيث يمكننا التحدث والجلوس، وحيث لا توجد ذكريات مؤلمة؟

فكرت كريستينا قليلاً. لم تجد اي مبرر لرغبة صديقة عمتها القديمة هذه في التحدث اليها، سوى مجرد اشفاقها عليها، وتعزيتها في مصابها. ولكنها لم تقتنع بهذا التفسير. لاحظت انها

امرأة هادئة الطباع، جدية الملامح. ويستحيل ان تهدر وقتها في
ابداء عواطف لا معنى لها. وتساءلت عن عدم حضورها المأتم،
ومجيئها الآن عوض ذلك، وعمن اخبرها بوفاة العمة غريس في
المقام الأول. لقد تولت هي بنفسها مهمة ابلاغ النبأ المؤسف
الى اصدقاء العمة غريس ومعارفها، وتعرف جيداً انها لم تكتب
الى احد يدعى براندون. ربما ان السيدة براندون حضرت المزاد
العلني لأنها ارادت هي الاخرى شراء آخر تذكار عن صديقتها.
ولكن لا يبدو ان عملاً كهذا يتلاءم مع شخصيتها.

ولكن ما دهاني؟ خاطبت كريستينا نفسها. لم اتعرف عليها
الا منذ لحظة قصيرة، ولا يجوز ان انظر اليها هكذا منذ اللقاء
الأول. ابتسمت تطمئنها:

- يمكننا الذهاب الى فندق السيدة ثرنتون.

وهتفت زائرتها:

- انها فكرة رائعة. وربما تمكنا من احتساء القهوة ايضاً.

اعتذرت كريستينا:

- لست متأكدة. ولكن يتوفر لديها الشاي بدون شك.

وهكذا كان. جلستا في غرفة الاستقبال تحتسيان الشاي،
مع بعض اقراص الحلوى. ولاحظت كريستينا ان مسز
براندون ترشف فنجانها بشق النفس، ولا تلمس اقراص
الحلوى. وبدت انها ليست في عجلة من امرها لخرق جدار
الصمت الذي انتصب بينهما. ظنت كريستينا انها تحلّق بعيداً
عنها، غارقة في تفكير مزعج بعض الشيء. ثم لامت نفسها

على خيالها الجامح. ألم تكن هذه المرأة صديقة عرابتها الحميمة،
ومن الطبيعي ان تشعر بالانقباض؟

تنحنحت قائلة:

- كنت تحبين عمتي كثيراً، يا سيدة؟

واخذت السيدة براندون تستعيد كامل ذاكرتها. رفعت
حاجبيها بأناقة تلقائية:

- طبعاً يا عزيزتي والا لما كنت هنا.

توردت وجنتا كريستينا قليلاً، ثم استجمعت قواها:

- لا . . . اعذريني يا سيدة. ولكن لا افهم سبب مجيئك الى
هنا. اعتقد . . . اعتقد . . . ان هذا الأمر لا يعنيني،
ولكن . . .

تلقت السيدة براندون كلماتها برحابة صدر:

- على العكس تماماً. انا اتيت من اجل رؤيتك. تلقيت
رسالة من عمتك عندما احست بمدى خطورة مرضها. الم تذكر
ذلك امامك؟ كلا، لا اتوقع منها هذا. كانت قلقة على
مستقبلك بعد وفاتها، وادركت ان اي ترتيب مادي تضعه في
وصيتها سوف ينتهي الى التنازع في المحاكم، وسيكون ذلك
مكلفاً ومزعجاً لك. ان ابنة اخيها كانت تكرهك، وما تورعت
عن اتهامك بممارسة ضغط مجحف على عمتك لو اورثتك كما
كانت ترغب.

قالت كريستينا مطرقة الرأس:

- ان السيدة ويبستر لا تحبني، مع انني لم اجتمع بها الا لماماً،

ولم تهتم بالعمة غريس عندما كانت على قيد الحياة

- انت ما زلت في مقتبل العمر يا عزيزتي، كريستينا أليس كذلك؟ وما زلت لا تدركين الحياة بمعناها الحقيقي.

ردت كريستينا بحدة، وهي تعض شفتها:

- اذا كانت الحياة كما تتصورها عائلة ويستر، فانا لا اريد فهمها.

ضحكت السيدة براندون، واستلقت الى الوراء في كرسيها. ثم قالت بلهجة ساخرة:

- حسناً. انا فخورة بجرأتك. انك شاحبة بعض الشيء، ولم اتوقع... (ثم غيرت مجرى الحديث) اخبريني يا عزيزتي عن مشاريعك. لا يمكنك كما اعتقد التفكير في البقاء هنا؟

هزت كريستينا رأسها:

- لا. طبعاً. هذه مسألة غير واردة، حتى ولو اردت البقاء. عليّ البحث عن عمل.

- عظيم. عظيم. هل تفكرين بعمل محدد؟

ترددت كريستينا برهة، عز عليها الاعتراف بالحقيقة.

فتابعت السيدة براندون:

- اذا كان الجواب كلا، فأنا لدي مشروع. انني ابحث عن سكرتيرة وزميلة، واعتقد انك مناسبة تماماً، اذا رغبت في العمل.

وضعت كريستينا فنجان الشاي على الصينية بيد مرتجفة. وقالت بهدوء:

- انها بادرة طيبة منك يا سيدة. ولكن انا متأكدة من الحصول على عمل ما هنا. انا... انا لا احتاج الى الصدقة او الاحسان، مهما كانت النية حسنة.

- هل تظنين انني اتصدق عليك؟ اذن انت لا تعرفينني جيداً. انا لا اعيل احداً مجاناً. انني اعاني من التهاب المفاصل، كما لاحظت، ولا اتحمل الألم بصبر ورباطة جأش، فأنا حادة الطبع. ثم هناك العزلة. فنحن لا نتمتع بأساليب الترفيه والتسلية مثلما تفعلين انت وسواك من الجيل الجديد.

لم تتمالك كريستينا من اطلاق ابتسامة باهتة:

- لا تخافي فأنا لا انتمي الى الجيل الجديد. تقولين انك تعيشين في منزل معزول يا سيدة؟ اين تسكنين؟ هل تعيشين في فرنسا اذ...

هزت السيدة براندون برأسها:

- لم تطأ قدماي ارض فرنسا مرة واحدة. ولدت مثل اختي مادلين في المارتينيك بجزر الهند الغربية. وذهبت انا واختي الى مدرسة للراهبات في انكلترا، وهناك تعرفت على عمتك. وعندما تزوجت، عشت في سانت فيكتوار، وهي جزيرة اخرى، ولكنها اصغر من جزيرة المارتينيك، وتقع تحت سيطرة بريطانيا. وكان زوجي في الواقع يملك معظم الجزيرة، وما زالت عائلتنا تعيش في ارك اينجل.

اضاء الفضول وجه كريستينا:

- يا له من اسم مثير يطلق على منزل! انك ابنجل: المَلاك الحارس.

- نعم. وقصته مثيرة ايضاً. انه ليس مجرد منزل. بل يضم ايضاً مزرعة. ولا تزال الجزيرة فيكتوار تحتفظ بجمالها الطبيعي الأصيل. لأن معظمها املاك خاصة بخلاف الأماكن الاخرى التي امتدت اليها ايادي المقاولين. ستولعين كثيراً بذلك المكان.

بلعت كريستينا ريقها، محاولة العودة الى ارض الواقع. انها لا تكاد تصدق ما يجري! هل يتم عرض عمل عليها في جزيرة كاريبية وهو ما لم تكن تحلم به؟ ولكن رغم حماسها الداخلي، ظل صوت عقلها يكبح جماحها. سألتها:

- لماذا انا بالضبط؟ لا بد ان هناك المئات من الفتيات اكثر كفاءة مني؟

ردت السيدة براندون:

- لا. انك تبالغين كثيراً. كما قلت لك الجزيرة نائية جداً، ولا تتوفر فيها تسهيلات عديدة معروفة كما يتوقع البعض. فنحن نعيش حياة هادئة، وبسيطة. واؤكد لك انها ليست محط انظار السياح. واحذرك انه توجد سلسلة صخور شاهقة محفوفة بالمخاطر تحيط بالشواطىء. وعندما تهب العواصف غالباً ما ننقطع عن العالم الخارجي لأسابيع طويلة. تعلمنا الاعتماد على انفسنا، لأنه لا يوجد حل اخر.

استطردت كريستينا مرتابة:

- لا اكاد اصدق ما يجري. ولا افهم سبب اختياري انا

بالذات. وانت علاوة على ذلك، لا تعرفين عني الا الأمور السطحية.

قالت السيدة براندون بوداعة:

- اعرف عنك ما يكفي. واعرف من رسائل عمتك انها كانت تحبك كثيراً. وهل تغيرين رأيك لو قلت لك ان اغلى امنية لديها كان اصرارها على انضمامك الي؟

صاحت كريستينا بامتعاض:

- كلا. او ربما ليس كما تظنين، ان ما تقومين به هو عمل احسان، وانا لا اريد ذلك. علي ان اتعلم كيف اكون مستقلة. انها بادرة طيبة منك، واعرف ان العمة غريس لا تريد لي الا الخير، ولكن لا احب فرض نفسي بطريقة غير لائقة.

قطبت السيدة براندون حاجبيها:

- ما هذا الهراء يا ابنتي؟ انت تخلطين الأمور. انت التي ستؤدي عمل خير واحسان. انا احتاج الى فتاة تمور حياة مثلك. واصدقي لن ادعك ترتاحين لحظة واحدة، وستقومين بخدمات لا يضاهيها مرتبك. انني امرأة انانية متقدمة في السن ولا احب صحبة العوانس اللواتي يثرثرن طوال النهار حول ماضيهن وذكرياتهن الغابرة.

جلست كريستينا صامتة، يضج راسها بألف سؤال. ان ما تعرضه السيدة براندون بالغ الاغراء، ولا سبيل الى رفضه. مع ذلك، وفي الوقت نفسه، صدها كبرياؤها عن قبول هذا الاسلوب في معاملتها وكأنها سلعة تتخاطفها ايدي العجائز.

اهذا ما كانت ترتبه خا عمتها قبل وفاتها؟ يا للاهانة وهي تلمس عدم ثقة احد بها لشق طريقها بنفسها!

مع ذلك لا تستطيع ان تنكر انها لو رأت اعلاناً عن عمل كهذا في مكان ما لما ترددت في تقديم طلب للحصول عليه. ولاحت في مخيلتها الرمال الفضية واشجار النخيل والأمواج المزبدة، المتهادية. كأن عصا سحرية حققت حلم حياتها. ولكن السيدة براندون بشعرها الأملس الأبيض واسلوبها المتعالي، فكرت كريستينا، لا علاقة لها بعرابة خرافية.

قطعت السيدة براندون حبل افكارها:

- انك تشغلين بالك بدون مبرر. هل يلائمك اكثر لو قلت لك انك ستكونين تحت التجربة اولاً، لمدة شهر تقريباً. ومن الأفضل لو اعتبرت زيارتك مجرد اجازة. اعرف انك عانيت كثيراً مؤخراً، ولا يحق لي الضغط عليك الى ان ترتاحي قليلاً. ماذا تقولين؟

احتارت كريستينا، ثم تنهدت قائلة:

- ماذا يمكنني ان اقول يا سيدة، انت لطيفة كثيراً. ولا تتركين امامي اي مجال للرفض. لا اعرف كيف اشكرك.

مدت يدها لالتقاط عصاها، شاعرة بألم طفيف، وقالت تطمئنها:

- سأفكر بطريقة مرضية. اذن اتفقنا. تقضين بضعة اسابيع تتمتعين بنور الشمس، ثم نقرر شيئاً اكثر ثباتاً.

نهضت ببطء وحذر على قدميها، ثم لاحظت كريستينا وهي

تهم بمساعدتها، فصاحت:

- هذا هو الدرس الأول يا عزيزتي. لا يهمني ان يساعدني احد. سأعود الى لندن الآن. ولكن قبل ذلك سأدفع حسابك مع السيدة ترنتون. وتفضلي بحزم امتعتك هذا المساء استعداداً للانضمام الي في الصباح، وقبل الساعة العاشرة. واشد ما اكره هو عدم المحافظة على المواعيد.

قالت كريستينا:

- ولكنني قادرة على دفع حسابي. ما زال معي بعض النقود. . . .

وتوقفت عن الكلام يخالجها قلق مفاجىء. ان الأمور تسير بسرعة عجيبة. حتى عمتها غريس لم تعاملها بهذا الاسلوب الحازم، الارستقراطي، وكأنها مجرد دمية تحركها اصابع السيدة براندون بخفة وبدون عناء.

خاطبتها بلهجة باهتة:

- احتفظي بالنقود لنفسك. او اشتري بعض الملابس الصيفية الخفيفة. ان ما ترتدينه يلائم منطقة القطب الشمالي اكثر من المناطق الاستوائية الحارة. اختاري ملابس قطنية، واشتري ثوب سباحة ايضاً.

ازدادت حيرة كريستينا:

- ولكن لم تذكري لي شيئاً عن الحفلات قرب الشاطىء.

اخجلتها السيدة براندون بجوابها:

- لن تكون هناك حفلات. ولكن الشطآن موجودة، ولا بد من الاستفادة منها. واتوقع انك تعلمت السباحة في المدرسة. وآمل ان تعتبري ارك اينجل كمنزلك انت، وليس كسجن يأسرك (ثم رددت تعليماتها السابقة وهي تلاحظ اضطراب كريستينا) احتفظي بنقودك. اسمحي لي ان اؤدي هذه الخدمة لك تعبيراً عن حبي لعمتك.

ولم يعد يليق بكريستينا رفض طلب كهذا، والا اثبتت مدى تبلد احاسيسها.

صحبت السيدة براندون الى الخارج، والى ان ركبت في سيارة الاجرة المنتظرة. وحاولت ان تلوح لها بيدها مودعة، لكن المرأة العجوز لم تلتفت الى الوراء او تبادر الى وداعها، فارخت كريستينا يدها، تشعر بحماقتها.

عادت ببطء الى الفندق، تكاد لا تصدق ما جرى امامها منذ دقائق معدودة. ها هي حياتها انقلبت رأساً على عقب، وتبدل كل وضعها فاصيبت بالدوار.

تجاهلت كريستينا صاحبة الفندق، وفضولها المعهود واسئلتها المتكررة، وتحذيراتها من الثقة بأي شخص غريب لا تعرفه. لكنها ظلت تراودها الشكوك، فقررت الذهاب لرؤية السيد فريث. لا بد ان يكون في المزاد العلني، وهو خير من يطلعها على حقيقة السيدة براندون.

ما ان وصلت حتى كان المزاد قد انتهى، ورأت السيارات تغادر المكان. ركضت كريستينا مسرعة. وها هو السيد فريث

يقف قرب سيارة ويبستر لالقاء تحية الوداع. ترددت قليلاً، ثم لمحته يومىء لتتقدم نحوه. فلم تجد مناصاً من الاقتراب منه. ابتسم متسائلاً:

- اين كنت يا عزيزتي؟ كيف اختفيت فجأة؟

فكرت كريستينا ملياً. لم تكن ترغب في مناقشة التطورات التي استجدت في حياتها على مسمع من عائلة ويبستر، فاكتفت بابتسامة باهتة، وغمغمت كلمات غير مسموعة، آملة ان تقلع سيارتهم، وتمضي في سبيلها.

ولكن فيفيان ويبستر مدت برأسها من النافذة، وحملقت في كريستينا بعجرفة. واستفسرت:

- هل تريدين شيئاً؟

- اردت التحدث الى السيد فريث.

صمتت فيفيان لبرهة ثم قالت:

- تذكري ان وقته باهظ الثمن. لا تتوقعي من رجل محترف، صاحب مهنة كالسيد فريث، تقديم خدماته اليك بدون مقابل الى الأبد.

استدارت كريستينا صوب السيد فريث، ووجهها يشتعل غيظاً:

- انا آسفة. لم يخطر في بالي...

وامسك فريث بيدها مقاطعاً، وقال يطمئنها:

- ولم يخطر في بالي انا ايضاً. كيف يمكنني مساعدتك يا كريستينا؟

هزت برأسها، محاولة الانسحاب:

- لا يهم. لا يهم. كل ما كنت اريد معرفته...

وصاحت فيفيان ويبستر بغضب:

- بالله عليك! اذا كان لديك ما تقولينه، فهيا ولنضع حداً لهذه المهزلة!

حاولت كريستينا تجاهلها، وسألت فريث:

- هل سبق للعمة غريس ان اتت على ذكر السيدة براندون امامك؟

وقبل ان يجيب، اقحمت فيفيان نفسها:

- عائلة براندون؟ طبعاً اتت على ذكر العائلة. ذهبت الى المدرسة مع الزوجتين، كانتا اختين وتزوجتا اخوين، انها قصة عاطفية حقاً. لماذا تسألين؟

لم تجد كريستينا مهرباً من الجواب:

- لأن السيدة براندون في انكلترا الآن وعرضت علي عملاً.

ردت فيفيان ببرودة:

- لا افهم معنى تصرفها هذا. انت لا تعنين لها شيئاً. هل كتبت لها متوسلة لايوائك؟ اتمنى انك لم تفعلي ذلك يا كريستينا. انه عمل ذليل.

قالت كريستينا متحدية:

- لا. ليس كما تتصورين. لم اعرف بوجودها حتى هذا اليوم. يبدو ان عمتي غريس كتبت اليها عندما فاجأها المرض.

اعلنت فيفيان:

- ان وجودها هنا امر بالغ الغرابة. هل حضرت المزاد العلني؟

- لا اعتقد.

قال السيد فريث بصوت هادىء:

- ما هو نوع العمل الذي عرضته عليك؟ ان اسمها مألوف جداً لدي. واعرف علاقتها بعمتك، ولكن لم اتصور ان الآنسة غريس كانت تنوي الاتصال بها نيابة عنك. لا بد من القول ان وجودها نعمة فائقة في هذه الأحوال.

قاطعته فيفيان ثانية:

- لا افهم معنى النعمة هذه، ولا ارى ضرورة لطلب مساعدة الاغراب.

احتفظت كريستينا برباطة جأشها، واطرقت برأسها صامتة. ثم سمعت محرك السيارة يدور استعداداً للاقلاع. تنفست الصعداء. ان عائلة ويبستر تتوارى عن انظارها، والى اجل غير مسمى.

طمأنها السيد فريث مجدداً. واكد لها مدى اهتمامه بمستقبلها:

- لا تجزعي. انها خطوة في الاتجاه الصحيح. توكلي على الله، ولا تصغي الى الأقاويل. واريدك ان تتصلي بي دائماً اذا ما تعرضت لأية مصاعب. ان عمتك اوصتني بك ايضاً.

ثم صعد الى سيارته، ومضى في سبيله.

استدارت كريستينا، وبدأت تسير في طريق العودة الى الفندق. ظلت مشوشة العقل، مضطربة القلب، لا تدري ما الذي تخبئه لها الاقدار الغامضة.

٢ - تحذير العراف

فتحت كريستينا مصراعي شباك غرفتها، وخرجت الى الشرفة تستنشق الهواء المنعش، وتتمتع بحرارة الشمس الدافئة. واخذت تراقب الفناء الداخلي للفندق الذي يتوسطه حوض سباحة ذو الوان تتلألأ زرقة مخضرة كالفيروز.

استاءت السيدة براندون من تأخر طائرتها الى المارتينيك بعد ظهر ذلك اليوم، لكن كريستينا لم تشعر بأي أسف. لم تكن في عجلة من امرها لركوب الزورق والابحار الى جزيرة سانت فيكتوار الصغيرة. لا بأس من قضاء بعض الساعات في المارتينيك والتمتع بمناظرها.

اوت السيدة براندون الى غرفتها، واشارت على كريستينا

بالمثل، لكنها لم تعبأ بنصيحتها. انها لم تستوعب بعد كل هذه التطورات، ولم تزدها رحلة الطائرة الا شوقاً لاكتشاف هذا العالم الجديد.

لم تكن تعرف الشيء الكثير عن المنزل او المزرعة حيث ستعيش بعض الوقت. كل ما تعرفه ان الأخت مادلين وزوجها لقيا اجلهما عندما غرق مركبهما قبل سنوات قليلة، وبدون ان تلم بتفاصيل هذا الحادث.

تأكدت من شيء واحد. ان السيدة براندون، تماماً كما قالت. حادة الطباع، سريعة الغضب. اكتشفت ذلك اثناء التبضع في لندن، وعبر اسلوبها في التعامل مع موظفي الفندق. ولم تدع احداً يفلت من لسانها واوامرها عندما توجهتا الى المطار للاقلاع الى المارتينيك.

مرت نصف ساعة وهي تفكر في حياتها الجديدة، المقلقة. وها هي تهبط سلالم الفندق العريضة، حيث خلعت بذلتها التي ارتدتها اثناء الطيران، وارتدت تنورة قطنية قصيرة قرمزية اللون، وقميصاً ابيض عقدت اسفله حول خصرها. وارخت شعرها فوق كتفيها، فبدت اكثر نضارة واصغر عمراً. ان السيدة براندون اقترحت عليها ارتداء ملابس صيفية، وشجعتها على شرائها عندما مرتا بلندن، وها هي تنفذ اوامرها.

اشترت كريستينا دليلاً سياحياً، واخذت تطوف في الشوارع، تجيل النظر في البيوت ذات الهندسة العجيبة،

وتتوقف قليلاً امام كاتدرائية شاهقة، او حانوت من حوانيت العطور او اللعب والدمى. واشترت دمية صغيرة تزينها ازياء المارتينيك التقليدية.

ولاحظت ان الازهار تنتشر في كل مكان، وتتدلى من الشرفات بألوانها الصاخبة المرحة، وتدافع الباعة يعرضون عليها باقات الزهور المختلفة....

تابعت السير الى ان شعرت بالجوع. تمنت لو تدخل مطعماً لتناول بعض المآكل التي كانت تترامى رائحتها الذكية الى انفها. تذكرت تحذيرات السيدة براندون المتكررة وضرورة تناول الغذاء في الوقت المحدد، فقررت العودة الى الفندق، او هكذا خيل اليها.

سرعان ما اكتشفت صعوبة ذلك. لم تعد تعرف طريق العودة. لو تذهب عبر هذا الشارع وتنعطف يساراً عند تلك الزاوية، ام تسير في الشارع المحاذي؟ واخذت تخرج من شارع وتدخل في اخر، وتحولت الشوارع الى ازقة ضيقة، واقل جمالاً ونظافة.

وتحولت رحلتها السياحية الى كابوس رهيب. ابطأت الخطى وهي تحدق حولها مرتابة. سمعت صوت طفل يبكي برتابة وحدة، وكأنه يمزق جوارحها المتعبة. وارتفع وراءها وقع اقدام المارة، فاطمأنت قليلاً. انها عثرت اخيراً على احد تسأله عن طريق العودة الى الفندق، وحتى بلغتها الفرنسية المحدودة.

ولكن ما ان استدارت حتى تجمدت الكلمات في حنجرتها.

كانوا ثلاثة صبية، رأتهم يتوقفون ليراقبوها، وعلى بعد خطوات قليلة منها. ابتسموا بصمت، وادركت كريستينا مدى ذعرها وعجزها لأول مرة في حياتها.

انها حرب اعصاب، خاطبت نفسها مرتاعة. فكرت ان تطلق ساقيها للريح، ثم عدلت عن الهرب، وهي لا تستطيع التراجع اذا ما فاجأتها نهاية ذلك الشارع شبه المعتم. وفجأة تقدم احدهم ورماها ارضاً. اغمضت عينيها مذعورة، وانطلقت صرخات استغاثاتها تدوي في الشارع المقفر.

فتحت عينيها ثانية، فاحست بصمت رهيب يخيم حولها. واستدارت ليقع نظرها على رجل طويل القامة يقف وراءها. ارادت ان تشكره، وقالت عوض ذلك:

- لقد ذهبوا!

قال بهدوء:

- طبعاً. هل انت مستاءة؟

كانت لغته الانكليزية سليمة لا عيب فيها، وبدون لكنة او لهجة غريبة. سألها:

- ما الذي تفعلينه في هذا الحي؟ هل يعرف اهلك اين انت؟

ردت تتحداه:

- انا لست طفلة. انني هنا مع ربة عملي.

تمعن في قسماتها قليلاً:

- ربة عملك؟ المعذرة. لم اعتقد انك في سن يسمح لك بالعمل. دعيني احزر! هل انت ممثلة ام عارضة ازياء؟

كان يسخر منها. هكذا افترضت كريستينا. فاسرعت بالاجابة:

- انا اعمل سكرتيرة. ويجب ان اعود الآن. ثمة من ينتظرني.

قال بجفاف:

- بدون شك. ماذا تفعلين بالضبط كسكرتيرة؟ هل تضربين على الآلة الكاتبة؟

ازدادت حيرة. لماذا يتصرف بهذا الاسلوب الفظ؟ هو الذي بادر الى مساعدتها، ولم تطلب منه انقاذها. قالت:

- قليلاً. نعم اجيد الطباعة قليلاً.

- قليلاً؟ اذن لا بد ان مواهبك تبرز في امور اخرى.

صاحت وهي تلقي نظرة على ساعتها:

- يا للويل. داهمني الوقت. هل تستطيع ان تدلني على طريق العودة الى فندق بوهرنيه؟ لقد ضللت سبيلي كليا.

قال هازئاً:

- كيف ستعودين بدون محفظة يدك؟ لقد نهبوها. كل ما كانوا يريدونه منك بعض النقود لا غير.

ازداد هلعها، فحاولت اخفاء مشاعرها:

- لا بأس. هل تدلني على طريق الفندق من فضلك؟

امعن في سخريته:

- سيري في اتجاه الأحياء الغنية، فأنت على مقربة منها الآن. انعطفي يساراً ثم يميناً وستجدين نفسك في الشارع الرئيسي.

حاولي تجنب الأزقة، فهي غير آمنة اجمالاً.

انحنى قليلاً، وابتعد عنها. ظلت كريستينا تراقبه حتى توارى عند الزاوية المحاذية. وكم كانت سعادتها عظيمة عندما اكتشفت دقة توجيهاته، حيث وجدت نفسها امام مدخل الفندق بعد دقائق معدودة. فاسرعت الخطى لتنضم الى السيدة براندون قبل ان تفقد صوابها وينفد صبرها.

وما ان همت بدخول قاعة الفندق حتى لمحت مجموعة من السياح يتجمعون في ناحية من الرواق يتابعون شيئاً ما يدور هناك.

تغلب عليها فضولها فقررت اكتشاف الحدث الهام الذي يستحوذ على انتباه الجميع. تقدمت قليلاً الى ان تبينت زنجياً يجلس مقرفصاً على الأرض ويرمي عظاماً يابسة في الهواء، ثم يلتقطها وهو يتمتم كلمات تنذر بالويل والثبور. انه عراف يقرأ البخت. خطت خطوة الى الأمام، ووقفت امامه مدهوشة. رأت رجلاً ينقده بعض الدراهم، ثم يشكره. ساد صمت مزعج. لم يتقدم زبون جديد. فلتجرب حظها، عساها تتبين ملامح مستقبلها الغامض. التقت عيناها بعيني العراف. ووجدته يباشر قذف اصداف براقة، ويومىء لها لتجلس قربه. اطاعت اوامره وكأن قوة سحرية تجذبها الى سماع كلماته. تململ قليلاً. قرك جبينه، وما لبث ان قال:

ـ عليك الاحتراس والحذر يا آنسة. اني ارى شراً. كوني حذرة من ابليس أرك ابنجل اللعين في آرك ابنجل.

ثم نهض بغتة، وجمع الأصداف والعظام، وغادر مسرعاً، متجاهلاً احتجاجات الجمهور. وقفت كريستينا محمرة الوجنتين، مضطربة، تركض كالمجنونة نحو مدخل الفندق، وكلماته ترن في اذنيها: كوني حذرة من ابليس.

كانت تعاني من صداع رهيب عندما شدت الرحال في اليوم التالي للذهاب مع السيدة براندون الى جزيرة سانت فيكتوار. وهي لا تزال تتذكر عبارات هذه العجوز اللاذعة، وتأنيبها لها لتأخرها وتعرضها لمشكلات كانت في غنى عنها.

واستعادت احداث يومها الفائت، وخاصة مقابلتها لذلك العراف وقراءته لبختها. لا بد انه يتبادل المعلومات مع احد موظفي الفندق حول النزلاء، ولا شك ان السيدة براندون اشهر من ان تعرف، فكرت كريستينا. الكل يعرف ابن تسكن واسم منزلها. وشاهدوها معها، فكان من السهل معرفة مكان توجهها. انها مسألة في غاية البساطة. ومع ذلك، كيف تفسر كلماته؟ ما الذي عناه بالتحديد؟

واخذت تتساءل بقلق عن الدافع الذي حمل السيدة براندون للسفر الى انكلترا والبحث عنها. فصحتها سيئة. وتعاني من التهاب المفاصل، ولا تكف عن ابتلاع الاقراص والمسكنات، مما يعني ان قلبها في حالة سيئة ايضاً. واذا كان هذا هو الوضع، تابعت كريستينا سلسلة افكارها، فلماذا لم تكلف احداً غيرها للقيام برحلة طويلة، مضنية كهذه؟

وتمنت لو تستطيع اقناع نفسها بعاطفة السيدة براندون

الجياشة، وانسانيتها المفرطة، ولكنها لا يمكنها ان تصدق كل ذلك بعد ان اختبرتها عن كثب.

اذن هناك سبب ملح دفع السيدة براندون الى رؤيتها شخصياً، مع انها لا تعرف ما هو هذا السبب الملح.

يا لبؤس حياتها. وطئت ارض المارتينيك تمور حيوية وغبطة، وتخال انها تعيش اسعد لحظات حياتها. وها هي تجلس في هذا المركب حزينة، مشوشة الأفكار، تلمح جزيرة سانت فيكتوار فلا تترك في نفسها الا انطباعاً مغلفاً بالأسرار والحيرة.

همت بالترجل من المركب، محاولة تعزية نفسها، وتعليلها بمفاجأة سارة جديدة. قررت ان تشاؤمها لا يليق بها، وربما كان احساساً خاطئاً لا صحة له. فلتنتظر حتى تنجلي الأمور اكثر.

كانت تنتظرها على رصيف الميناء سيارة فخمة، يجلس وراء مقودها رجل اسود يرتدي بزة رسمية. ولاحظت تبدل طبيعة السيدة براندون، وظهور دماثة لطيفة في تصرفها ازاءها، وهما تتوجهان نحو السيارة. ورأت السائق يرفع قبعته ويتوجه صوبها بابتسامة عريضة:

- الحمدلله على السلامة يا سيدة. ويا آنسة.

اعطته السيدة براندون عصاها، وصعدت الى المقعد الخلفي قائلة:

- شكراً يا لويس. باركك الله.

ولاحظت كريستينا السائق يلف بطانية حريرية حول ساقي السيدة براندون رغم رطوبة الجو الحار.

وجلست كريستينا في المقعد الأمامي كما اشارت عليها ربة عملها. وانطلقت السيارة، وهي تشعر بالحر الخانق، لكنها لم تفه ببنت شفة، تمنّت نفسها بحمام ماء بارد وبعض المرطبات فور وصولها.

لم تجد ما يلفت النظر في منطقة الميناء سوى مجموعة من المباني الواطئة المسقوفة بألواح من الحديد المضلع، ويعلو معظمها الصدأ والغبار. وكانت الشوارع المتفرعة من الميناء ضيقة ومزدحمة بالدراجات. ولاحظت كريستينا ان الارصفة تتكدس فوقها اكشاك الفاكهة والخضار، وتغص كل بقعة بالأولاد والصغار وشتى الحيوانات. وابدت اعجابها بمهارة لويس وهو يشق طريقه عبر هذا الزحام.

وما هي الا لحظات حتى وصلوا الى طريق عريض، مستقيم. لا يعكر صفو هدوئه شيء، فتنفست الصعداء. ثم تبينت لها ان هذا الطريق ليس اكثر من درب ترابي تتخلله الحفر، فتهتز السيارة يميناً وشمالاً رغم مهارة لويس في القيادة.

وبعد ان قطعوا بضعة اميال صعدت بهم السيارة الى طريق مرتفع، وتراءى البحر لكريستينا في البعيد، بلونه الأزرق العميق، يكاد يعانق الأفق بعفوية اخاذة. نظر اليها لويس مؤكداً:

- سوف تشاهدين مناظر اكثر جاذبية.

ومضت بهم السيارة في طريق تتوسط حقولاً زراعية. يعمل فيها عدد من الاشخاص. ورآهم كريستينا يلوحون بايديهم،

وتصورت، بدون ان تلتفت وراءها، السيدة براندون تهز برأسها لرد التحية. وفطنت انهم الآن على اطراف المزرعة التي ذكرتها لها ربة العمل.

كانت حقولاً شاسعة، تمتد الى مسافات بعيدة، ترصعها مجموعات من المساكن لايواء عائلات العمال، كما افترضت، كأنها عالم صغير وسط عالم آخر. وارتابت كريستينا من ضخامة هذه المزرعة. لم تعرف في حياتها سوى الريف الانكليزي وجماله الوديع، وها هي تصطدم بالحر اللاذع، والتربة القاتمة، والاشجار والنباتات الغريبة الشكل والبراعم. احست انها في برية موحشة لم تروضها الحضارة بعد.

تناولت منديلاً من محفظتها ومسحت تصبب عرق جبهتها ووجهها. وكانت السيارة الآن تجري بمحاذاة الشاطىء ورماله الفضية، وامواجه المتهادية بنعومة، يلامسها نسيم البحر العليل. ولكن الحر داخل السيارة كان يخنقها، وهي لا تجرؤ على فتح النافذة خوفاً من السيدة براندون التي تعشق الحر، مهما كانت درجته. لا بد انهم اقتربوا من نهاية الطريق، عللت كريستينا نفسها...

استرخت في مقعدها، مغمضة عينيها، ومحاولة تجاهل محنتها، وارتجاج السيارة فوق الطريق الوعر. وما ان همت بالطلب من لويس للتوقف، حتى وجدته يخفف سرعته، وينعطف فوق طريق بدا لها ناعماً كالحرير بعد اهوال الأميال السابقة. فتحت عينيها قليلاً، واكتشفت انهم يمرون تحت قوس

من الاشجار الخضراء المنعشة.

وهتف لويس وكأنه احس بضيقها:

- سنصل بعد لحظة قصيرة.

وانعطفت السيارة فوق طريق منحدر، وها هو المنزل يتراءى امامهم، تظلله الاشجار الوارفة. كان مطلياً باللون الابيض، ويتكون من طبقتين كبيرتين تحيط به مصطبة عريضة، وترتفع فوقها شرفة يزينها درابزين حديدي امام الغرف العليا. توقفت السيارة امام درجات المصطبة، ولمحت كريستينا امرأة طويلة القامة تنتظر عند الباب الأمامي للترحيب بهم، ويدل فستانها الأسود ومئزرها الناصع انها مدبرة المنزل. تنفست كريستينا بعمق وهي تحس بتوترها يتلاشى تدريجياً، نظرت الى مدبرة المنزل وابتسمت بحياء، لكنها لم تجد اي تجاوب.

وتوكأت السيدة براندون على عصاها، ومشت بتمهل وهي تهتف:

- سيدة كريستوف، هل كل شيء على ما يرام؟

ردت مدبرة المنزل بصوت خفيض

- كل شيء على ما يرام. لا توجد اية مشكلة.

وقفت السيدة براندون فوق المصطبة لاستعادة نفسها، ثم اومأت نحو كريستينا التي كانت تسير وراء لويس وهو يحمل الحقائب:

- اقدم اليك الآنسة بينيت. سيدة كريستوف، هل تلقيت برقيتي؟

قالت السيدة كريستوف وهي تتفحص زائرتها الجديدة:

- اعددت لها غرفة. اهلاً بك في ارك اينجل يا آنسة.

وتوجهوا جميعاً الى الداخل. كانت القاعة الأولى فسيحة مربعة الشكل مبلطة بألوان زرقاء وخضراء. وبدا لكريستينا ان جميع الغرف الرئيسية تفتح ابوابها على هذه القاعة، وتبين لها ان الطبقة العليا تأخذ شكل صالة عرض واسعة. وانتصب عند اقدام السلم اللولبي تمثال رخامي لشاب في ريعان الصبا يعتمر درعاً معدنياً، ويمسك برمح طويل يهم ان يطعن به حيواناً مجنحاً يرتمي عند قدميه. وكان الشاب اياه يمد جناحين رائعين مخضبين بالذهب.

تقدمت منها السيدة براندون شارحة:

- هذا هو ملاكنا الحارس يا آنسة، والذي تحمل المزرعة اسمه. ارك اينجل او الملاك الحارس.

اجابت كريستينا ببرودة:

- صحيح!

ابتسمت العجوز:

- ألم اقل لك ان وراء اسم المزرعة قصة طريفة؟ انها تعود الى القرن السابع عشر عندما بنت اول عائلة بيتاً هنا وشرعت بزراعة السكر. كانوا يستخدمون العمال العبيد في تلك الأيام، كما تعرفين. وجلبت مجموعة من العبيد احد الأمراض. وانتشر المرض في كل الجزيرة، كانتشار النار في الهشيم. كان مرضاً كالطاعون. واخذ الناس يموتون كالذباب. وهكذا تضرع

سكان الجزيرة، وهم في مرحلة اليأس، الى هذا الرمز - الملاك.

وسألتها كريستينا:

- وهل نفعت صلواتهم؟

اجابت السيدة براندون بانزعاج:

- زال الطاعون بعد مرور اسبوعين. وظن الأهالي انها كانت اعجوبة. ومنذ ذلك الحين ونحن ندعو المزرعة ارك اينجل. ان التمثال قديم جداً، وجلبته العائلة معها من فرنسا كعربون وفاء. (وفجأة بدلت لهجتها) اصعدي الى الطابق الأعلى، وستدلك السيدة كريستوف على غرفتك.

شكت كريستينا في كل كلمة سمعتها. انها قصة خرافية، خاطبت نفسها. ثم مشت وراء قامة مدبرة المنزل المنتصبة عبر البهو، وممر تعلوه قنطرة. واكتشفت ان الممر يؤدي الى جناح خلفي. وتوقفت السيدة كريستوف قبل نهاية الرواق امام باب مزدوج من الخشب، وفتحته.

اخذت كريستينا تجول بنظرها في الغرفة وهي لا تكاد تصدق عينيها. كان السقف مطلياً بلون عسلي مشع، وكذلك الحيطان. اما السجادة والستائر الحريرية فكانت ضاربة الى الصفرة. وادركت لتوها ان هذه الزخرفة الفخمة فوق مستوى موظفة قد لا تمكث مدة طويلة. لاحظت السيدة كريستوف دهشتها، فقالت:

- الا تعجبك الغرفة يا آنسة؟

اجابت بتردد:

- على العكس تماماً. انها اجمل غرفة رأيتها في حياتي. ولكن هل تنوي السيدة براندون تخصيصها لي؟

نظرت اليها السيدة كريستوف وكأنها توبخها:

- انها تترك هذه التفاصيل لي. ولكن اؤكد لك انها ستوافق على اختياري. لقد جلب لويس حقائبك. سأطلب من بولالي لتساعدك على فتحها (ثم حدجتها هنيهة قبل ان تغادر مرددة) لكن الظروف تتغير، اليس كذلك؟ ربما كان من الأفضل لك الاستعداد لاي طارىء يا آنسة.

اوصدت الباب بهدوء، تاركة كريستينا في سيطرة تامة على مملكتها الصغيرة. وكان اول ما فعلته الاستحمام، وترتيب ثيابها في خزانة الحائط العريضة.

ثم بدلت ملابسها، وخرجت الى الشرفة حافية القدمين. ولمحت عن يسارها سلماً حديدياً يؤدي الى الحديقة، وبركة سباحة طويلة مستطيلة الشكل. وامتدت في كل النواحي مروج خضراء تختلط بعد مسافة شاسعة بشجيرات مزهرة ونباتات برية كثيفة الأوراق. وبعد ذلك يبدو البحر منبسطاً، جميل المنظر.

لم تمر دقائق معدودة حتى سمعت رنين الهاتف في غرفتها. فأسرعت ترفع السماعة قائلة:

- ألو. كريستينا بينيت.

سمعت زفيراً وأصواتاً خافتة، ولكن لم يجبها أحد. صاحت

بحدة:

- نعم؟ من هناك من فضلك؟

سمعت ضحكة مكبوتة وكأن صوتها المذعور ادى الى النتيجة المرجوة. ازداد توترها:

- هل تكف عن هذا المزاح وتخبرني ما تريد!

ثم سمعت نقراً خفيفاً على الباب. استدارت مرتاعة، فرأت الباب ينفتح ببطء. دخلت فتاة تناهزها في العمر. بدت بالغة الجمال بشعرها الداكن وعينيها السوداوين، وبشرتها الضاربة الى السمرة، كبشرة السيدة كريستوف. لا بل ان كريستينا خالتها صورة مصغرة للسيدة كريستوف عندما كانت في مثل سنها.

ابتسمت الفتاة ابتسامة بريئة، عفوية كاشفة عن اسنانها البيضاء السوية:

- تفضلي بالنزول الى المكتبة لاحتساء الشاي. او ربما تفضلين ان اجلب صينية الى هنا؟

قالت كريستينا بعجلة:

- كلا سأنزل بنفسي. لا بد انك بولالي؟

برقت عيناها متسائلة، وهي ترى سماعة الهاتف في يد كريستينا:

- نعم انا بولالي. ولكن هل تحبين شيئاً آخر؟

احست كريستينا بحرج شديد:

لا. ولكن رن جرس الهاتف ولم يجبني احد.

استأذنتها بولالي لتدعها تتحرى الأمر بنفسها. وضعت اذنها على السماعة لحظة، ثم استدارت صوب كريستينا:

- لا يوجد احد الآن يا آنسة. هذا هاتف المنزل الرئيسي، ومن السهل ضرب رقم مغلوط.

لم تقتنع كريستينا:

- ولكن لم يقولوا ذلك. لم يكن هناك اي صوت. انه تصرف بغيض.

قالت بولالي ببرودة:

- ربما اخطأت الظن. لا يوجد احد في هذا المنزل يتصرف هكذا.

ومشت نحو الباب، متوقعة من كريستينا السير وراءها. ولم يخب ظنها. لحقت ببولالي عبر الممر، متجهة الى السلم الرئيسي، وهي تبحث عبثاً عن موضوع ما للتحدث اليها. كان وضعها في المنزل غامضاً. انها الآن مجرد ضيفة، ولكنها اتت الى هنا لتعمل. هل اساءت تصرفاً الى احد؟ فكرت كريستينا. لم تتعرف الا على لويس والسيدة كريستوف، وبولالي. لا يمكنها تصور احد من هؤلاء يعمد الى ممارسة الاعيب بغيضة ضدها في يومها الأول.

بلغتا أسفل السلم. وحدقت كريستينا في التمثال مرة اخرى. وفوجئت باكتشاف شكل جديد للحيوان المستلقي عند قدميه. لم يكن تنيناً كما خالته سابقاً، بل يشبه شكلاً بشرياً. وقررت انه قبيح المظهر، يثير الاشمئزاز.

عبرت بولالي القاعة. تنتظر بفارغ الصبر امام الباب في الجهة المقابلة. وضعت كريستينا يديها في جيبي تنورتها، وقالت مستفسرة:

- قولي لي من هو هذا السيد الذي تدوسه الأقدام؟

وقبل ان تفوه بولالي بكلمة، ارتفع صوت اخر مألوف، هز كيانها هزاً:

- انه ابليس يا عزيزتي. ابليس نفسه.

رأت صاحب الصوت يقف عند المدخل الأمامي. وعرفته رغم ملابسه الجديدة. ان عينيه لا تزالان تتماوجان بذلك اللون الفضي الذي لفت نظرها. وهو يقف هناك في ذلك الزقاق الضيق بعد تعرضها للهجوم. قال بلطف:

- هل كنت تتوقعين ان يكون كائناً آخر؟

٣ - الحذر من ابليس

تسمرت كريستينا في مكانها، تتأجج ارتباكاً وحيرة، وتبحث عن عبارات تنطق بها. ظلت معقودة اللسان. لم تكن تتوقع ان تراه ثانية. لا بل تمنت الا ترى وجهه في حياتها، خاصة بعد تلك الحادثة المؤسفة، واسلوبه في معاملتها. الم يؤنبها بعد ان اقفز الشارع من المارة، واعتبرها مجرد طفلة صغيرة ضالة؟ الم يعتبرها سيئة النوايا لا هم لها سوى استغلال امرأة طاعنة في السن؟ الم تشكره على مساعدته، ومضى كل منهما في سبيله، فماذا يريد الآن؟

هتف هازئاً:

- ما هذا الصمت ايتها السكرتيرة البارعة؟ آمل انك لم

تتعرضي لمزيد من المصائب منذ لقائنا الأخير.

شمخت كريستينا بأنفها. يدل مظهره، وطريقة دخوله المنزل انه احد الزوار الدائمين، وعرفت ان من الأفضل لها اخفاء عدائها ازاءه، ولكن كلماته تجرح مشاعرها، وتغيظها الى ابعد حد.

قالت بتأفف:

- شكراً. كل شيء على ما يرام.

رفع حاجبيه:

- هل انت في طريقك الى المكتبة لتناول الشاي؟

كادت تنكر كل شيء، وتنسحب الى غرفتها. ولكنها قاومت نزوتها العابرة، وهي ترى بولاني منتصبة قرب باب المكتبة تصغي الى تبادلهما العبارات المثيرة بدهشة. لا، لن تتصرف بحماقة. خاطبت نفسها، ومشت بخطى وئيدة صوب المكتبة.

كانت غرفة المكتبة جميلة للغاية، مربعة الشكل، واطئة السقف، مفروشة بسجادة عجمية، وتمتد رفوف الكتب فوق ثلاثة من جدرانها، وتزين الجدار الرابع نوافذ فرنسية مشرعة لاستقبال النسيم العليل. ولمحت مقاعد جلدية امام النوافذ، مع طاولة صغيرة في الوسط. ووضعت هناك صينية، يتوسطها ابريق شاي فضي، والى جانبه فنجانان فاخران. وادركت كريستينا لتوها ان الشاي معد لشخصين فقط.

التفتت وراءها، وهالها ان تراه يهم باغلاق باب المكتبة، نظر اليها مبتسماً وكأنه يقرأ افكارها.

ثم قال ساخراً:

ـ افضل الشاي مع بعض الحليب ولكن بدون سكر من فضلك.

احمرت وجنتاها، واسرعت تظهر انهماكها بابريق الشاي. بدا قديماً وثقيلاً. واحست بارتعاش يدها حيث اندلق بعض الشاي فوق الصحن والصينية. عضت شفتها اسفاً، واخذ رفيقها المتطفل يهز رأسه تشفياً:

ـ ما هذا ايتها السكرتيرة البارعة؟ عليك تلقي بعض الدروس قبل ان تصبي الشاي لعمتي. انها لا تتساهل ابداً حول مسائل كهذه، وتبدي رأيها بصراحة. الم تلاحظي ذلك؟

ارخت كريستينا ابريق الشاي باضطراب. تنبهت الى كلمة واحدة نطق بها:

ـ تقول عمتي! هل انت ... هي...

قال بهدوء:

ـ هذه هي الحقيقة المرة. اعتقد ان الأوان حان لتقديم نفسي. انا ديفلين براندون، ابن اخت ربة عملك.

ردت كريستينا بعد لحظة مليئة بالدهشة:

ـ هكذا اذن!

اخرج ديفلين براندون علبة سكائر من جيب قميصه، واشعل واحدة منها. وعلق ببرودة:

ـ اعرف ان وجودي مفاجأة غير سارة. هل يهدأ بالك لو قلت لك ان ردة الفعل كانت متبادلة؟

اجابت بامتعاض:

ـ وكيف ذلك؟

ابتسم بخبث:

ـ لانك لم تشبعي فضولي حول حاجة عمتي الى خدمات سكرتيرة مثلك!

تمالكت كريستينا اعصابها، وصبت الشاي في الفنجان، وحملته اليه رابطة الجأش:

ـ ألا تعتقد ان سؤالاً كهذا يوجه الى عمتك؟ وكف عن مناداتي بهذا اللقب!

اشار باسلوبه اللاذع:

ـ لا يمكنني ان اناديك بغير ذلك! لن يكون ذلك لائقاً.

قالت وهي تشعر بالاعتزاز:

ـ لم انصور ان اللباقة تهمك كثيراً يا سيد براندون.

ظل محافظاً على هدوئه، مسترخياً في المقعد الجلدي، وابتسامة ساخرة تعلو وجهه:

ـ ان للهرة الصغيرة مخالب اذن. انصحك بعدم اظهارها. لا يتسع هذا المكان لاكثر من لبوة واحدة، وكما ستلمسين ذلك بنفسك. وانني انتظر.

ـ ماذا تنتظر؟

ـ انتظر لأسمع اسمك وماذا تفعلين هنا.

ترددت كريستينا. كان قلبها يحثها لافهامه ان هذه الأمور لا تعنيه لا من قريب ولا من بعيد. ولكن ربما كانت مخطئة؟ انه من

عائلة براندون، ولا تعرف ما هو مركزه في العائلة بعد.

واخيراً قالت بجفاف:

- اسمي كريستينا بينيت. واستخدمتني السيدة براندون لأكون سكرتيرة ومرافقة.

اجاب بعذوبة:

- هل هذا صحيح؟

حدجته بنظراتها:

- يبدو... يبدو انك لا تصدقني. هل يوجد اي مبرر آخر لوجودي هنا؟

طفأ السيكارة في المنفضة:

- هذا ما تبادر الى ذهني. وحتى الآن لم احصل على اجوبة مقنعة.

اعادت كريستينا فنجانها الى الصينية، فصلصل قليلاً، وقالت بحدة:

- انك تثير السخرية!

لوى فمه:

- ماذا؟ اسمعي يا آنسة بينيت. التقيت بعمتي، ويمكنك ان تحكمي بنفسك ماذا اذا كانت تحتاج الى مرافقة.

طوت كريستينا اصابعها تبدي استياءها:

- اعتقد ان ذلك يتوقف على ما تتوقعه من خدمات.

ومط بشفتيه يسألها:

- وما هي الخدمات التي يمكنك تقديمها؟

اضطربت قليلاً:

- لم نناقش هذا الموضوع بالتفصيل..

صاح بازدراء:

- هذا هو الصدق بعينه. قولي لي يا آنسة بينيت هل سبق لك ان قمت بعمل مشابه؟

قالت تتحداه:

- نعم كنت اعمل مع... مع عمتي ولعدة سنوات في هذا المجال.

اجابها بفتور:

- وتعتقدين ان ذلك يؤهلك للعمل مع عمتي. انك اما بالغة السذاجة او خارقة الذكاء يا آنسة. ولا ادري ايهما.

فغرت كريستينا فمها:

- انك قليل الحياء يا سيد براندون. اذا كانت عمتك تعتبر مؤهلاتي وافية، فهذا يكفيني (ونهضت واقفة) والآن اسمح لي بالانصراف...

قال بفظاظة:

- اجلسي مكانك. لم انته منك بعد.

ابتسمت باستخفاف:

- يا لحظك السيء. لم يعد لدي ما اقوله. ومن الواضح انك تجدني غير مؤهلة لهذا المنصب، مع اني لا افهم لماذا...

قاطعها بحزم:

- لا تفهمين لماذا؟ امعني النظر قليلاً يا عزيزتي الصغيرة.

وقبل ان تأتي بحركة، توجه نحوها، وامسك بكتفيها، فوجدت نفسها امام مرآة معلقة قرب الباب. صدمها مظهرها: بشعرها الاشعث، ووجنتيها المحمرتين، وعينيها المتطايرتين شرراً. بدت مخلوقة همجية. حاولتْ التملص من بين يديه. فنهرها بصوت اجش:

- لا تتحركي. واسألي نفسك ما الذي يمكن ان تقدمه فتاة بعمرك ومظهرك الى امرأة مثل عمتي.

رددت بعنف:

- ربما كانت السيدة براندون لا تريد الانزواء كعجوز طاعنة في السن. تحب ان تنعم بصحبة احد في مثل عمري، وهذا ما قالته لي.

- وانت اغرتك الحياة الصاخبة في هذه المنطقة من العالم، فتشبثت بعمل كهذا.

وكادت تبوح له بكل الحقيقة وتروي له شكوكها ومخاوفها التي تقض مضجعها. ولكن لتدعه يفكر ما يشاء. لن تبالي به. وقالت ضاحكة:

- طبعاً. ولا تعتقد انني وقعت ضحية خدعة معينة. ان السيدة براندون شرحت لي كل السلبيات والعوائق التي ستعترضني.

تركها وشأنها ومشى نحو النافذة:

- وماذا عن الايجابيات والفوائد... هل ذكرتها لك؟

استطردت بثقة:

- انها اشهر من ان تعرّف.

ورأته يلتفت اليها بمرارة وامتعاض:

- ربما كنت على حق. لا ادري ما الذي اقنعك بقبول العيش في هذا المكان المنعزل، ومع سيدة مستبدة لا تزال تظن ان عصر الرقيق لم يتم الغاؤه بعد.

قالت كريستينا بصوت مضطرب:

- يا لك من خسيس. كيف تقول هذه الأشياء عن عمتك...

قاطعها:

- ان آرائي لا تلائم خيالك الشاعري وتصورك لحياة المزرعة. لا تخدعي نفسك يا آنسة بينيت. انت لا تعيشين في الفردوس، ولا توجد ملائكة هنا.

حمدت ربها وهي تلاحظ انفتاح الباب. ظنت ان بولاين عادت تطمئن عليها. خاب ظنها.

رأت شاباً في ريعان الصبا، فائق الجمال بشعره الأسود، وعينيه اللامعتين وفمه الجميل. كان يرتدي ملابس ركوب الخيل بأناقة تامة. وينتعل جزمة براقة نظيفة. خاطب كريستينا بلباقة مهذبة:

- تأخرت كثيراً. ويبدو انك تناولت الشاي. اردت العودة مبكراً. ارجو المعذرة. اسمي ثيو براندون.

ثم انقبضت اساريره قليلاً، وكأن شيئاً ما ازعجه، وقال:

- مرحباً يا ديفلين.

اجابه ديفلين بانحناءة من رأسه:

- لم اكن اعلم انك تعشق الشاي يا ثيو؟

هز ثيو بكتفيه، ونظر الى كريستينا:

- اردت الترحيب بالضيفة الجديدة.

رفع ديفلين حاجبيه:

- ضيفة؟ تقول انها اتت لتعمل هنا.

رد ثيو متبرماً:

- لا بأس، ستجد جدتي شيئاً يشغلها في ساعات الضجر. ولكن عليها ان تستعيد نشاطها تحت اشعة الشمس (ونظر اليها باشفاق) لقد عانت كثيراً مؤخراً، اذ فقدت احدى قريباتها.

تنهد ديفلين بلوعة:

- هكذا. لو عرفت ذلك لوفرت على نفسي متاعب كثيرة (ومشى نحو الباب ثم توقف) عندما ترتاح عمتي من عناء السفر، هل ابلغتها ان وفداً من لجنة الجزيرة يرغب في رؤيتها. وفي الوقت الذي يلائمها.

ابتسم ثيو ابتسامة باهتة:

- هل من الضروري ان تجتمع بالوفد؟

- لا. ولكن طلبوا مني ابلاغها.

جلس ثيو على حافة المقعد، ينقر جزمته بسوط الركوب، واستفسر:

- وهل ستكون احد اعضاء الوفد؟

استدار ديفلين يهم بالخروج. كان معكر المزاج، وسمعته

يردد بعنجهية:

- طبعاً، طبعاً.

قالت بنبرة واضحة عذبة:

- وداعاً يا سيد براندون.

هدر غاضباً:

- افهم معنى كلماتك، ولكنك تبالغين قليلاً. لا شك اننا سنلتقي اكثر من مرة واثناء اجازتك.

يا لخيبة املها، فكرت كريستينا، وهو يوصد الباب وراءه بشدة. ووجدت ثيو يحدجها باستغراب، فخجلت قليلاً.

سألها ثيو بوقاحة:

- هل تجدينه جذاباً؟

كادت ان تشتمه، ثم تذكرت ان الاثنين تربطهما صلة القرابة:

- آسفة. لم اقصد...

قهقه:

- ما لنا وللمجاملات. كانت ردة فعلك طبيعية. سيشعر بصدمة رهيبة لو عرف حقيقة مشاعرك. انه يعتبر نفسه فاتن النساء. وما الذي قاله ليغيظك هكذا؟

اجابت تتعمد اخفاء اضطرابها:

- لا شيء. سبق لنا ان التقينا قبل هذه المرة. هذا كل ما في الأمر.

علت الدهشة وجهه.

- متى كان ذلك؟ هل تعرف جدتي بالأمر!
اعترفت كريستينا:
- لا. حاولت اخبارها لكنها كانت مستاءة مني، ورفضت الاصغاء الي.
ابتسم ثيو ابتسامة غامضة:
- يا لك من مسكينة يا كريستينا. هل اتعبتك كثيراً؟
قالت تغالب غيظها الدفين:
- انني معتادة على السيدات المسنات.
- انا لست مستاء منك. وكلي لهفة لسماع اخبارك. متى التقيت بابن العمة ديفلين، وماذا فعل لازعاجك؟
عضت كريستينا شفتها:
- لم يزعجني ابداً. كان بالغ التهذيب. صدف مروره وانا اتعرض للسرقة. او اسوأ من ذلك، في المارتينيك امس. كانوا ثلاثة، وما ان اطل حتى اختفوا كلهم.
- وهل عاملك كرجل شهم يفيض نبلاً؟
ردت كريستينا محتدة:
- لم يعجبني تصرفه ابداً. عاملني باسلوب احمق.
- وهل دعاك للابحار على زورقه؟
ازدادت لهجتها جفافاً:
- ابداً. ولم اعرف انه يملك زورقاً.
- يملك زورقاً كبيراً احسده عليه. احذري من خدعه الملتوية يا كريستينا.

قالت بفتور:
- انا لست مهتمة بأموره الخاصة. هل قلت انه ابن عمتك؟
اجاب بتأفف:
- اناديه هكذا. وهو في الحقيقة عمي، ولكنه لا يحب ان اخاطبه بهذا اللقب. وقد افعل ذلك للاقتصاص منه، ولتصرفه غير اللائق معك.
جن جنونها:
- لا. ارجوك. انه يعترض على وجودي هنا لسبب ما. ربما بدل رأيه عندما يراني اعمل مع السيدة براندون.
قال مطمئناً:
- لا تجزعي فهو لا يسكن هنا. هل انت مسرورة الآن؟
وأحست كريستينا بارتياح عميق. ثم حاولت ان تحافظ على حيادها في خلافات العائلة او منازعاتها التي لا تفهمها:
- لا يمكنني ابداء سروري. يكفي انه انقذني من اولئك الاشقياء.
تثاءب ثيو قليلاً:
- لا تشغلي بالك كثيراً. ربما كان اولئك الاشقياء من اصدقائه، ولذلك فروا هاربين. انه شخص غريب الأطوار، وذو ماض يفوح بالقذارة.
سرت رعشة مخيفة في مفاصلها. واصطكت ركبتاها هلعاً، فارتمت على المقعد. وتقدم منها ثيو يهدىء روعها:
- انا آسف.

قالت بحرج شديد:

- اعذرني. لا بد ان الخـ ـر علي. من الأفضل ان اذهب الى غرفتي الآن.

وقف ثيو، يساعدها على النهوض، قائلاً:

- يا لها من فكرة رائعة. واستلقي على فراشك لبعض الوقت. لا شك ان الطاهية كوكو تعد لنا عشاء شهياً اكراماً لك.

اعلنت كريستينا محتجة:

- ولكن لا ضرورة الى كل ذلك.

ثم تركها تصعد السلم، متوجهة الى غرفتها. واستلقت على فراشها قلقة، حائرة. وتذكرت كلمات العراف: احذري من ابليس. وهي تعرف الآن ان ابليس ليس سوى ديفلين. انها تعرف ذلك جيداً، وعليها الاحتراس واليقظة. هل كان العراف يخدعها بعد ان اكتشف هويتها ووجودها مع السيدة براندون، وهو لا شك يعرف ديفلين، فحاول اثارة مخاوفها عمداً؟

اغمضت عينيها، وشبح ديفلين بوجهه الساخر يحوم في مخيلتها. تمنت لو تطرد هذا الشبح الرهيب وتحل محله صورة ثيو باناقته وعذوبة كلماته. وادركت ان ديفلين يستحوذ على تفكيرها مهما فعلت، بحركاته واقواله ورجولته، في حين ان ثيو مجرد صبي.

ولكنها تكرهه. تكره حتى ذلك اللون الفضي في عينيه. انه

عدوها، وعليها تذكر هذا الواقع دائماً.

سمعت قرعاً خفيفاً على الباب. ثم دخلت يولاني. وقالت مباشرة:

- السيدة براندون تسأل عنك.

اسرعت كريستينا ترتب هندامها.

- حسناً. اين غرفتها؟

ومشت خلف يولاني الى ان بلغتا البهو الرئيسي. وادركت كريستينا ان جناح السيدة براندون يقع بمحاذاة البهو الكبير، ويتكون من غرفة نوم كبيرة وحمام، وحجرة صغيرة تضم آلة بيانو.

التفتت السيدة براندون منفرجة الأسارير عندما دخلت عليها كريستينا:

- اجلسي يا ابنتي. هل انت بخير؟

احاطتها كريستينا باحناءة من رأسها، ثم قالت:

- آسفة. كان علي تغيير ملابسي لتناول العشاء.

تقبلت اعتذارها برحابة صدر:

- لا اهمية لذلك. لا اتوقع منك معرفة كل شيء منذ اليوم الأول (ثم سألتها) اخبريني ما هو رأيك في ارتك اينجل؟ هل تحبين المعيشة هنا؟

لم تتوقع كريستينا سؤالاً كهذا، فغمغمت ببضع كلمات غامضة. فطمأنتها السيدة براندون:

- اعرف انك تحتاجين الى مزيد من الوقت لاتخاذ قرار كهذا.

ولكن اريدك ان تتصرفي وكأنك في بيتك.

اجابت كريستينا بحياء:

- هذا من لطفك يا سيدة. اعدك ببذل جهدي لتلبية كل طلباتك. واتمنى ان تحددي موعد بدء العمل وما يتطلبه بالضبط، ونوعية واجباتي.

لوحت السيدة براندون بيدها، تتلألأ منها الماسة كبيرة، وقالت:

- يوجد متسع من الوقت لبحث كل ذلك. اما الآن فخذي قسطك من الراحة وتمتعي بما حولك. واعتقد انك تعرفت على حفيدي.

قالت كلماتها الأخيرة بدون مبالاة، لكن كريستينا احست بتوتر خفي. اجابت على نحو طبيعي:

- نعم تعرفت عليه. اي عندما كنت احتسي الشاي.

علقت العجوز:

- هذا ما قاله لي. يبدو انك تركت فيه انطباعاً عميقاً.

نظرت كريستينا مذهولة!

- انك تبالغين قليلاً يا سيدة. ان الأولاد في مثل سنه يتأثرون بسرعة.

تجهمت السيدة براندون:

- في مثل سنه؟ انه لا يصغرك الا بأشهر قليلة. وفي الحقيقة تبدين بشعرك المتدلي فوق كتفيك اصغر منه.

قررت كريستينا اتباع سياسة الحذر:

- نعم. ولكن يقال ان البنات ينضجن قبل الصبيان ولو كانوا في سن واحدة.

ردت باقتضاب:

- من المحتمل. لم يحصل لي شرف التعرف على عدد كبير من البنات. ولذلك اعجز عن اعطاء رأيي. هل تجدين ثيو صغيراً بالنسبة الى عمره؟

سارعت كريستينا بالقول:

- لا. ابداً. يبدو انه ناضج تماماً، ويحب الحياة.

طاب خاطرها، فتنهدت قائلة:

- صحيح انه لم يرزق بصحبة ابناء جيله في الماضي. واعلق اماني عليك لتعديل هذا الوضع قدر المستطاع. انكما مثال الرفيقين مع بعضكما البعض.

بلعت كريستينا ريقها، محتجة بدون طائل:

- ولكن اعتقدت انني سأعمل معك

عقدت السيدة براندون حاجبيها:

- ليس تماماً يا ابنتي. انا لا اقترح عليك العمل مع ثيو. اريد القول ان لديك كامل الحرية لتقبل دعوة منه.

احمرت وجنتا كريستينا، وتمتمت:

- شكراً يا سيدة.

- هل يزعجك اهتمام حفيدي بك؟

مدت كريستينا يدها تفرك اذنها:

- كلا. انه فتى جريء. ولكن لا افهم كيف تسمحين لي،

كموظفة ليست ارقى من الخادمات كثيراً، بانشاء صداقة مع حفيدك.

تجمدت عينا العجوز:

ـ انت ضيفتي وكانت عرابتك صديقتي. لا اريد سماع اي حديث عن خادمات وما الى ذلك بعد الآن. تتكلمين كأنك تعيشين في القرن الماضي.

اطرقت كريستينا رأسها:

ـ انا آسفة. ولكن وضعي يبدو غامضاً جداً...

داعبت وجنتها بنعومة:

ـ هدئي من روعك. لا داعي الى القلق وهذا الاضطراب. والآن اقرعي الجرس ولنذهب لتناول العشاء.

التهمت كريستينا طبقها بشهية، رغم عواطفها المشوشة، ومراقبة ثيو لها خلال فترة العشاء بأكملها.

ثم توجهوا الى صالون خاص تزينه الوان ذهبية وعاجية. وانتهزت كريستينا انهماك ثيو وجدته في لعب الورق لتتجول في الغرفة، وتمعن النظر في اللوحات والرسوم المزخرفة. ومر امامها شريط من صور عائلة براندون مغرقة في القدم. ثم لمحت لوحة زيتية خالتها بريشة الرسام الفرنسي الشهير رينوار.

انتهت من جولتها، فأحست بالملل الشديد. تمنت لو تستطيع التنزه في جنائن المنزل، لكنها عدلت عن ذلك لمعرفتها ان ثيو لن يتوانى عن رفقتها. كانت تريد تجنب التورط في اية علاقة غرامية معه، والافضل ان تخرج واياه للتفرج على المزرعة

والحقول المجاورة في وضح النهار وليس تحت ستار الظلام.

همس ثيو في اذنها، فاضطربت قليلاً:

ـ هل تحبين الموسيقى؟

اجابت:

ـ احبها كثيراً رغم انني لا اجيد العزف على اية آلة.

تقدم من خزانة الزبة، وفتحها. رأت آلة ستيريو ومجموعة ضخمة من الاسطوانات. واشار عليها باختيار ما تريد، قائلاً:

ـ انها كلها موسيقى كلاسيكية للأسف. جدي تمقت الموسيقى الحديثة. واذا كنت تفضلين الموسيقى الراقصة، يوجد ما يشبه النادي الليلي في سانت فيكتوار. يمكننا الذهاب الى هناك ذات مساء اذا احببت.

كانت دعوته طبيعية لا يجوز رفضها، قررت بينها وبين نفسها. ولم تكن مفاجأة لم تتوقعها، فابتسمت شاكرة.

حط نظرها على اسطوانة تعجبها، فطلبت منه سماعها. وجاءت الموسيقى الناعمة لتشكل خاتمة لطيفة ليومها. هكذا حدثت نفسها وهي تتوجه نحو غرفتها محنقة وراءها ثيو مكسور الخاطر.

بدت غرفتها مريحة، مزهوة باستقبالها. ولاحظت ان احداً ما اشعل المصباح بجوار سريرها. خاطبت نفسها:

ـ علي الاحتراس، والا وقعت ضحية هذه الحياة المرفهة.

وهذه هي مشكلتها. اتت الى هنا لتعمل، وتكسب رزقها بعرق جبينها. وها هي تكتشف شيئاً آخر. ولن ترضى بحياة

كهذه تؤدي بها الى التواكل، والتصدق والاعتماد على الغير.

اوت الى الفراش، وظلت مسهدة لا يجد النوم الى عينيها سبيلاً. تمنت لو نفذت خطتها وقامت بنزهة قصيرة عوض الاصغاء الى الموسيقى. ان الهواء العليل يهدىء الاعصاب ويجلب النعاس.

وبعد ان تقلبت في الفراش متململة لبعض الوقت، نهضت من السرير، وارتدت معطفها. مشت نحو النافذة وفتحت مصراعيها المطلين على الشرفة. كان الجو منعشاً الآن، فكرت وهي تحدق الى صفاء الفضاء، يتهادى فيه قمر مضيء بشعاع باهت. تنفست بعمق واغتباط. بدا كل ما يحيط بها عالماً جديداً لا عهد لها به.

وبينما هي غارقة في احلامها العذبة، لفتت انتباهها حركة مكبوتة في الأسفل. وعرفت لتوها القامة التي خرجت من الظلال، وسطعت تحت ضوء القمر، رغم اختفاء البذلة السوداء والمئزر الابيض، والاستعاضة عنها بلباس محكم يشد جسدها شداً. انها يولالي تمشي بجسدها الاهيف. ورأتها كريستينا تدور حول بركة الساحة، وتسرع الخطى في اتجاه شجيرات كثيفة.

عادت كريستينا الى غرفتها وخلعت معطفها. تأكد لها ان يولالي ذاهبة للقاء احد ما. ولا بد انه شخص لا يسكن في ارك اينجل.

استلقت على فراشها يساورها الارتياب. ان هذا الشخص

ليس سوى ديفلين براندون. ولكن لماذا تشغل بالها به وبهذه الخادمة؟

٤ - الانتصار الكاذب

قضت كريستينا ليلة مليئة بالقلق. ونهضت في الصباح تغشى ذاكرتها أطياف احلام مرعبة. فتحت عينيها خائرة القوى. غير ان اشعة الشمس المشعة عبر الستائر اعادت اليها بعض حيويتها.

وأعلن القرع الخفيف على الباب وصول بولالي تحمل طبقاً من عصير الفاكهة الطازج، وبعض الخبز والزبدة، وابريق قهوة حارة. شعرت كريستينا ببعض الحرج وهي تتمدد فوق الفراش. لم يسبق لها ان تناولت فطورها في السرير، الا في حالة مرضها. وبدت بولالي مستاءة هي الأخرى، وألقت عليها تحية الصباح بلهجة شبه عدائية.

وما أن غادرت بولالي الغرفة، حتى ألقت كريستينا نظرة عاجلة على ساعة المنبه التي جلبتها معها من انكلترا. لا يزال الصباح في بدايته فقررت البقاء في غرفتها مدة ساعة أو ساعتين، طالما ان السيدة براندون لا تحب النهوض باكراً كما علمت منها.

انهت فطورها، وارتدت بنطالاً ضيقاً، وقميصاً قصير الأكمام، ثم رتبت سريرها، وأسرعت بالعدو في اتجاه الحديقة عبر السلم الخلفي.

وقادتها قدماها الى الشجيرات الكثيفة عند أطراف الحديقة، فلمحت درباً ترابياً يؤدي الى الشاطىء. كان الهواء يترنح بهمهمة النحل وحشرات اخرى، وترامى الى مسامعها همس الأمواج تداعب الشاطىء البعيد.

حثت الخطى، متفادية الجذور النابتة، حانية رأسها مخافة تشبك شعرها في الأغصان المتدلية. كان درباً ضيقاً، وبدت الشجيرات الكثيفة تمتد امامها مثل نفق داكن اخضر لا تخترقه اشعة الشمس.

وأخيراً وصلت الى بقعة الرمال الفضية المنحدرة برشاقة نحو المياه المزبدة ورفعت وجهها تستقبل الشمس بامتنان، تخال انها تقف وحيدة في عالم هجره اهله، ولم تعد تسمع سوى تغريد عصفور مغتبط، وصوت مياه البحر الحالم. انه شاطىء مثالي، خاطبت نفسها، ولا بد لها من انتهاز الفرصة غداً، فتجلب ملابس السباحة، وتنعم بدفء الموج الهادىء. خلعت صندالها

ومشت حافية الى حافة المياه فلامست قدميها بنعومة وغنج. ثم بدأت تسير فوق الشاطىء، والنسيم العليل يداعب شعرها، ويبعث في شرايينها حياة جديدة، طارداً فلول ليلتها البائسة.

وخالت انها الآن قادرة على تحمل كل المصاعب التي تواجهها في موطنها الجديد. وحتى ثيو ستعرف كيف تتعامل معه، مهما كانت نواياه. علت ثغرها ابتسامة، وهي تفكر في ثيو، ذلك الفتى الدمث الأخلاق، المرهف الشعور. ومع ذلك قررت انه لا يلائمها، وتفضل ان تتزوج احداً اقرب الى مزاجها، وتصورها لمواصفات الرجل، رجل المستقبل. ووجدت نفسها تفكر في ديفلين براندون، فاعترتها مشاعر غامضة، وكأنها ترفض اصدار حكم نهائي عليه.

كانت غارقة في افكارها، تشنف اذنيها بهدير الأمواج، فلم تنتبه الى صوت ايقاع مكبوت يرتفع وراءها. وعندما تبينته قليلاً، احتارت في معرفة مكان انبعاثه. ثم ادركت بهلع انه ايقاع حوافر حصان يعدو فوق الشاطىء. نظرت وجلة، ممتعضة، تلعن حظها السيء. ورأته بقامته الطويلة يمتطي حصاناً اسود اللون ضخماً. كان عاري الصدر، داكن البشرة، يفيض رجولة ورقة. اين المفر الآن؟ فكرت كريستينا. لتتوجه الى الحديقة، فهي ملاذها الوحيد.

وأدركت انه يلاحقها عمداً، فضاعفت من سرعتها. زلت قدمها والتوى كاحلها التواء مؤلماً دفعها الى اطلاق صرخة الم موجعة. وتهاوت على الرمال بائسة، تحضن جرح قدمها.

شد ديفلين براندون لجام حصانه، وقفز برشاقة عنه، متقدماً نحوها. وهتف:

- هل انت مجنونة؟

كان يتوقد غضباً. وأدركت مدى جنونها وهي تحاول الهرب على هذا النحو. كانت نزوة صبيانية لا يجوز ان تخضع لها بعد نضوجها. وما هو عذرها؟ لا شيء سوى عنادها ورفضها مواجهته، وها هي الآن تنبطح ارضاً، وتخسر ما تبقى من كرامتها.

حاولت النهوض، فتهاوت لا تستطيع حراكاً. قرفص ديفلين براندون بجانبها، وراح يتفحص كاحلها باصبعه، فاغمضت عينيها بقوة. قالت بجفاف:

- سأكون بخير بعد برهة قصيرة.

وقف على قدميه معلناً:

- يفرحني أن اسمع رأيك الحكيم. بدأ كاحلك بالتورم كما الاحظ. لا بد من غسله بالماء البارد وربطه. سآخذك الى حجرة المركب لمعالجته.

اصيبت بصدمة عنيفة، فصاحت:

- كلا! (ثم غيرت لهجتها) اعني... اعني شكراً على مساعدتك. ولكن سأكون بخير، اذا ما استرحت لبضع دقائق هنا.

استشاط غيظاً:

- يا لك من مخلوقة عنيدة. اعرف كم يصعب عليك

الاعتماد علي مرة ثانية، ولكن لا خيار لديك. وأعنك بالتركيز على كاحلك ولا شيء غير ذلك، اذا كانت الشكوك تساورك.

انحنى ليساعدها على النهوض، فاشتعلت حقداً، وغرزت اسنانها في يده بسرعة البرق. شتمها وسحب يده وقد لطختها بقع حمراء دامية. جلست كريستينا صامتة، متوجسة تشعر بالذنب. نظرت اليه وكلمات الاعتذار ترتجف فوق شفتيها. فرأته يبتسم قائلاً:

- ما معنى هذا العض، وفي ظرف غير مناسب؟

غصت حنجرتها:

- انت... انت...

- انك قنبلة الحياء، لا بد من تلقينك بعض الدروس وفي مجالات كثيرة.

وفجأة انكب فوقها وحملها الى حصانه. اقعدها فوق السرج، وامتطى الحصان وراءها.

قطعا مسافة قصيرة، خالتها كريستينا اميالاً تتلوها اميال. يا لها من لحظات حرجة، انعقد خلالها لسانها، وهي تعارك احاسيسها الغريبة. تجمدت فوق ظهر الحصان، لا تجرؤ على الاتيان بأية حركة، شاعرة بوجوده وراءها، وكأنه لا يبالي بما يدور في داخلها من صراع رهيب. لا شك انه رجل جذاب، وتدرك ذلك من اعماق قلبها، لكنها لن تفصح بأي شيء. لا، لن تخضع لسحره، لن تبوح بعواطفها المتأججة.

تمهل الحصان قليلاً، ووقع نظرها على مركب فخم يتهادى

قرب الشاطىء. وقرأت اسمه المطلي باتقان: عذراء القمر.

لم تكن معتادة على امتطاء الأحصنة، فأحست بالاعياء. وظل كاحلها يؤلمها بشدة. حمدت الله عندما ترجل ديفلين، وأنزلها عن السرج. وبدأ الحصان يعدو مبتعداً عن الشاطىء. سألته:

- لماذا فعلت هذا؟

قال:

- ان الاسطبل في ارك اينجل. وهو يعرف طريق العودة. مارك مهتم به.

لم تصدقه. انه لا يسكن في ارك اينجل. ورأت كوخاً صغيراً قرب تلة رملية. ترى هل يعيش في هذا المكان؟ سألت نفسها. حاولت ان تمشي، فاخفقت اخفاقاً مذلاً. حملها بين ذراعيه، وأخذ يصعد بها السلم الخشبي. دخل غرفة كبيرة مبعثرة الأثاث، تغطي ارضها بطانيات مزخرفة الألوان. ورأت في الزاوية مقعداً خشبياً تتكوم فوقه قطع من القماش تستر شيئاً ضخماً تحتها.

وفتح باباً داخلياً، فوجدت نفسها في غرفة النوم، حيث القى بها فوق السرير.

توارى عن نظرها، فعرفت انه يجلب بعض الماء وضمادة. عاد يحمل ابريقاً وصندوق اسعاف اولي. وقال آمراً:

- ارفعي اطراف بنطالك الى اعلى. هيا، والا طويتها انا.

فاذعنت لأوامره صامتة. وأخذت تراقبه بحذر وهو يلعب

دور الممرض والطبيب. خف الألم الموجع وقد لف كاحلها ضماد متين. قالت:

- شكراً.

ابتسم بعذوبة:

- حاولي الوقوف الآن.

وأمسك بيديها، فتجالدت، ولمست الأرض بخفة. وقفت منتصبة رغم شعورها ببعض الوجع وتمتمت:

- انني بخير الآن. عليّ الانصراف.

اشار نحو الباب:

- كما ترغبين. ولكن القهوة جاهزة، الا تريدين شيئاً حاراً؟

- شكراً. من الأفضل ان اذهب. ستفتقدني السيدة براندون.

القى نظرة سريعة على ساعته:

- في هذا الوقت؟ ما بالك، هل تخافين مني؟

توردت وجنتاها:

- ما الذي تعنيه؟ لم يخطر...

قال يلتهمها بعينيه:

- يوجد مشط في الدرج. انصحك بالاعتناء بهندامك. سأتدبر امر القهوة. انضمي الي ساعة تشائين.

استدار وخرج. يا له من وغد! خاطبت كريستينا نفسها. ما الذي يكيده لها؟ يا ليتها لم تخرج الى الشاطىء. انها الآن أسيرة نزواته الشريرة. كان العراف على حق. انه ابليس بعينه،

ابليس الذي يعذبها بأساليب ملتوية، ويهزأ منها كلما حاولت مقاومته.

وقفت امام المرآة تسرح شعرها، وتفكر في وضعها. قررت ان تحتسي القهوة. فتهدأ اعصابها قليلاً، وتتمكن من التفكير بوضوح اكثر. توجهت الى غرفة الجلوس. كان ديفلين يجلس في الزاوية يحمل ابريقاً وبعض الأكواب. استنشقت نكهة القهوة وكأنها فخ لاصطيادها، فجلست على طرف المقعد، متمنية ان يظل بعيداً عنها. وبدا للوهلة الأولى منهمكاً في احتساء القهوة، فاطمأنت.

اخذت تمعن في الغرفة عن كثب. رات صفاً من البنادق قرب الجدار المجاور لها، وبعض أدوات صيد السمك. كان كل شيء يدل على مكان لا اثر لذوق النساء فيه.

تنحنحت:

- هل تعيش هنا منذ مدة طويلة؟

- منذ اربع سنوات، منذ وفاة اهلي.

حملقت فيه كريستينا مذهولة. غاب عنها للوهلة الأولى انه ابن مادلين، شقيقة السيدة براندون، تألمت لحاله بدون اي مبرر. سألته بعفوية:

- وتسكن هنا وحدك؟

قال بخفة:

- يا له من سؤال! لا تتوقعي مني اي جواب.

وتابع، وهي تشعر بالاحراج:

- علاوة على ذلك، لا شك ان عمتي قد ألمحت امامك الى حياتي الصاخبة. واعتقد ان هذا هو سبب هربك مني على الشاطىء.

رمت بشعرها الى الوراء:

- لم اهرب منك. كنت اتمتع بالعزلة، ولم ارغب في رؤية احد.

قهقه عالياً:

- انه تصرف لا يليق بسكرتيرة، اذا كنت ستمارسين اي عمل.

فغرت فاها:

- ماذا تقصد؟ الا تصدق انني سكرتيرة.

استطرد هازئاً:

- لا اظن، لأنني اعرف عمتي جيداً. انها انسانة ذات شخصية مستقلة وطاغية، ولم يسبق لها ان احتاجت الى مساعدة احد.

وضعت كريستينا كوبها على الطاولة الصغيرة، وشبكت اصابعها مضطربة:

- يبدو لي ان خلافاً ما نشأ بينك وبينها. لا اعرف ما هو، ولا علاقة لي بذلك. لكنها ربة عملي، وعاملتني بكل لباقة، وأشعر ببعض الولاء لها. ربما كنت على حق، فهي لا تحتاج الى سكرتيرة، ولم تعرض علي العمل الا حرصاً على كرامتي، وحفاظاً على صداقة قديمة. . .

توقفت عن الكلام، وهو يحدق فيها وكأنها مجنونة. قال متجهم الوجه:

- ما هذا؟ ما هي هذه الصداقة القديمة؟

بلعت ريقها قائلة:

- كنت اعيش مع عمتي، عرابتي الآنسة غرانثم غريس. توفاها الله منذ بضعة اسابيع، ولكنها كتبت الى السيدة براندون قبل وفاتها. وأعتقد انها طلبت منها الاعتناء بي. ومن هنا عرضت العمل علي والبقاء في هذا المكان.

بدا وكأنه لم يسمع كلمة قالتها:

- ولكن انصحك بالعودة الى انكلترا. وهذه نصيحة صديق.

تفجرت غضباً:

- لا احتاج الى نصيحتك او نصيحة اي انسان. ولا يمكنني العودة الى انكلترا الان بدون اي دراهم.

قال بهدوء:

- يا لها من ورطة!

ردت بكبرياء:

- انها ورطتي انا. اعرف ان الوضع صعب، ولكن علي تلبية رغبات السيدة براندون.

قال مهدداً:

- اذن ابقي عند عمتي، وتحملي وضعك. ولكن اياك ان تركضي الي مولولة عندما تسوء الأحوال.

وقفت متثاقلة على قدميها. وقالت بصوت مرتجف:

- انت آخر من افكر في اللجوء اليه يا سيد براندون. آسفة لازعاجك في الماضي. لن ترى وجهي بعد اليوم.

مشت نحو الباب، فأحست بيديه تمسكانها بفظاظة. ثم ارخى اصابعه قليلاً، والتصق بها. فطنت بغريزة الأنثى الى ما بيته لها. عاركته تريد التملص بدون جدوى.

لم تنبس ببنت شفة، كأن خدراً اصابها فاستسلمت لعناقه.

يا لها من لحظة مشحونة بالمشاعر الدفينة. لم تعد تدري معنى اي شيء. ما الذي دهاها؟ كيف تدعه يقترب منها هكذا؟ برهة غامضة مغلقة بالأسرار، ثم سمعته يهمس في اذنها:

- لماذا لا تغضبين الآن؟

استعادت صوابها، وصرخت مبتعدة عنه، والخجل يغمرها:

- يا لك من وغد. ايها الابليس اللعين!

وأطلقت ساقيها للريح، تعدو هاربة رغم آلام قدمها.

كانت تعرج، وتتلوى الماً عندما بلغت سلم الحديقة المؤدي الى شرفتها. ولم تعثر على صندالها الذي خلفته وراءها قرب الشاطىء، فصعدت حافية القدمين. شعرت بنعومة السجادة وهي تدخل غرفتها. وارتمت فوق السرير.

يا لها من تجربة مرة! استلقت منهكة، لا تجد تفسيراً لمغامرة طفولية تخوضها مع رجل يحتقرها. تمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها.

رن جرس الهاتف يزعق زعقاً. رفعت السماعة:

- الو.

وهدر صوت السيدة براندون:

- كريستينا؟ هذه ثالث مرة اتصل بك. اين كنت؟

استوت كريستينا ترفع عن وجهها شعرها المشعث:

- ذهبت في نزهة قصيرة. انا اسفة. هل كنت تريدين شيئاً؟

- تعالي الى غرفتي فوراً.

وأقفلت العجوز السماعة بعنف.

بدلت كريستينا ملابسها بسرعة لتخفي آثار نزهتها المشؤومة. وسرحت شعرها وخرجت.

كانت السيدة براندون تجلس على مقعدها الوثير، تطرز قطعة من القماش. نظرت الى كريستينا تحدجها باستهجان. ثم رأت ضمادة كاحلها، فهتفت:

- جرحت قدمك يا ابنتي!

- كنت على الشاطىء وفتلت كاحلي.

ركزت العجوز نظرها على الضمادة:

- هكذا اذن. ولديك خبرة في تضميد الجروح والاسعاف الأولي؟

تلعثمت كريستينا:

- كلا. التقيت... التقيت بابن اختك على الشاطىء. وتفضل بمساعدتي.

اجابت السيدة براندون بهدوء:

- صحيح؟ يا لها من بادرة كريمة. وليست هذه هي المرة الأولى. اخبرني ثيو انك التقيت ديفلين في المارتينيك؟

قالت كريستينا بحياء شديد:

- نعم. ولكنني لم اكن اعرف من هو آنذاك بطبيعة الحال.

صمتت السيدة براندون برهة ثم تأوهت:

- انني في موقف صعب يا كريستينا. اشعر انني مسؤولة عنك تماماً مثل عرابتك. وعلي تحذيرك من ديفلين. لم يكن يصغي الا الى والدته. وما ان رحلت عن هذا العالم حتى تحول الى شخص حاد الطباع، لا يهمه رأي احد.

وتابعت السيدة براندون، وكريستينا كلها آذان صاغية:

- لم يعد يبالي بالعائلة وسمعتها. وهكذا هجر هذا المنزل، وقطن في ذلك الكوخ على الشاطىء. وتخلى عن مسؤوليته تجاه المزرعة. وهو الآن يعيل نفسه من دخل الثروة المالية التي ورثها عن اهله، ويحصل رزقه عبر حفر التماثيل الخشبية.

كان صوتها جليدياً، مفعماً بالازدراء. وعاد بكريستينا الخيال الى ذلك المقعد الخشبي الذي لمحته في غرفة الكوخ. سألت العجوز بعفوية:

- هل يجيد حفر الخشب؟

حدجتها السيدة براندون بغطرسة:

- ما اهمية ذلك؟ انه يجد دائماً زبائن لشراء بضاعته. ولكن عمله لا يليق بمن ينتسب الى عائلة براندون. ان واجبه ان يكون هنا، يساعدني على اعداد ثيو من اجل ميراثه.

استفهمت كريستينا:

- ما الذي تعنينه؟

تأوهت السيدة براندون ثانية:

- ان المسألة في غاية البساطة. كان زوجي واخوه توأمين. وولد زوجي قبله بنصف ساعة، ولذلك ورث المزرعة عندما توفي والده. واصبح هو وأخوه كاري شريكين يديران المزرعة سوية. وفي غضون ذلك التقى كاري بأختي مادلين وتزوجها بعد عام. عشنا هنا جميعاً حياة سعيدة في البداية. ثم بدأت المصاعب.

قالت كريستينا شاعرة بالحرج الشديد:

- هل من الضروري اخباري كل هذا يا سيدة؟ انها مسألة لا تعنيني، و...

استأنفت السيدة براندون التطريز:

- نعم، من الضروري اخبارك. انت الآن واحدة من العائلة يا عزيزتي. لا بد ان تفهمي سبب كره ديفلين لنا جميعاً (وتناولت مقص الخياطة) عندما ولدته اختي، طارا فرحاً، هي وزوجها. واخذا يدللانه الى ان فسدت طباعه. وتوهم ديفلين، نتيجة الشراكة بين والده وزوجي، ان له حقاً في الوراثة. وعندما اطلعناه على حقيقة الأمر، وفهم ان ثيو سيكون الوريث الوحيد، جن جنونه. وجاراه في آرائه والداه. وأخذوا يصرفون اوقاتهم في السفر، والرحلات، والابحار في المركب. وكان ثيو في ذلك الحين لا يزال صبياً صغيراً (وتنهدت متابعة) وأثناء

احدى تلك الرحلات البحرية هبت عاصفة هوجاء، وغرق المركب بمادلين وكاري مودياً بحياتها.

صمتت قليلاً، تفرس في وجه كريستينا، ثم استطردت:

- ومرة ثانية جن جنون ديفلين. اتهمنا بشتى التهم. وأمعن في تهمه وشتائمه، الى ان علا صراخنا بالشجار والكلام القاسي، فقرر الرحيل. بعد مرور عامين اصيب زوجي بمرض عضال، فطلب رؤية ديفلين، وتمنيت عليه من كل قلبي ان نتوصل الى تفاهم ما، ولكنه اصر على موقفه أثناء تأبين زوجي. ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل ضدنا ويكن لنا العداء.

دهشت كريستينا لهذه العبارات فغامرت بسؤالها:

- وبأي اسلوب؟

ابدت السيدة براندون تأففها:

- ذهب ليدرس في الجامعة وتشرب بعض الأفكار الغريبة. وعندما عاد بدأ ينتقد طريقة العمل في المزرعة، وكيفية اقتصارنا على زراعة السكر دون سواه. ادعى ان مصاعب جزر الهند الغربية، وخاصة الاقتصادية منها، سببها هذه الزراعة الأحادية. كان يريدنا تنويع المحاصيل، وزراعة الحبوب الغذائية. وبالطبع رفضنا آراءه المعوجة. وما لبث ان جمع حوله بعض الأشخاص الذين يشاطرونه نظريته. وهم الآن يدعون انفسهم: لجنة الجزيرة.

تململت في مقعدها، وعلت وجهها مسحة من القلق، ثم تابعت:

- انني اخبرك كل ذلك يا ابنتي لتأخذي حذرك. انت غريبة هنا، ولن يتردد ديفلين عن استغلالك خدمة لمآربه الخاصة. حاولي تجنبه. ولن يصعب عليك ذلك، فهو قلما يزورنا.

هزت كريستينا برأسها صامتة. انها نصيحة من السهل تنفيذها، خاطبت نفسها.

وقضت ساعة من الزمن تملي عليها السيدة براندون بعض مراسلاتها. وكانت في معظمها تافهة المضمون، كما اكتشفت، تدور حول اعمال خيرية، او تلبية دعوات اجتماعية. وهذا كل شيء. من الواضح ان السيدة براندون لا تحتاج الى سكرتيرة، ولن تجد عملاً يشغلها طوال اليوم. فكرت كريستينا.

جلست في المكتبة تطبع الرسائل على الآلة الكاتبة. راحت تستعيد آراء ديفلين حول شؤون المزرعة، والمصاعب الاقتصادية في جزر الهند الغربية. وجدت نفسها توافق على ما ذهب اليه، مع انها لم تكن خبيرة اقتصادية. تذكرت مقالاً قرأته في احدى المجلات يناقش هذه النقطة ومن زاوية مشابهة. انهت الطباعة، وهمت بالصعود الى الطابق الأعلى لتطلب من السيدة براندون توقيع الرسائل. لكنها ظلت مسمرة على الكرسي، تغرق في لجة من القلق والاضطراب.

ماذا تفعل؟ سألت نفسها. هل تعود الى انكلترا... وكيف؟ لا يمكنها البقاء في منزل مغلف بالأسرار، ويقطنه اناس غريبو الأطوار. وماذا عن ديفلين براندون؟ ان مشاعرها ازاءه مشوشة، ومتناقضة. انه الشيطان بعينه. شيطان عرف كيف

بدبر لها مكيدة تلو الأخرى. وعانقها حتى خال انها استسلمت له بكل جوارحها. يا لبؤسها!

تلك كانت غلطة مشؤومة. لن تكررها ابداً. قررت ان تستمر في العمل في ذلك المنزل مهما كانت العراقيل. وفجأة غمرتها نشوة انتصار ممزوج بالكآبة.

وبعد مرور ساعات طويلة، تحولت النشوة الى كآبة قاتمة، وكأنه كان انتصاراً كاذباً.

٥ - رقصة وحيدة

ومر الاسبوع التالي على نحو عادي رتيب. كانت كريستينا تتناول الفطور في غرفتها، ثم تذهب للتنزه الى ان تستدعيها السيدة براندون. ولكنها لم تغامر خارج الارض المحيطة بالمنزل، متجنبة الشاطىء رغم ولعها به.

لم يأت ديفلين للزيارة، وتفادى الجميع ذكر اسمه. اما السيدة براندون فأحجمت عن اضافة اي جديد حول تاريخ العائلة وخلافاتها، وكأنها ندمت على ما تفوهت به. وظلت كريستينا تبحث عن اجوبة لمسائل تقلقها. ادركت ان السيدة براندون تغاضت عن ذكر اي شيء يتعلق بابنها، والد ثيو. واحتارت لماذا تعمدت العجوز تجاوز هذه النقطة الهامة.

وطافت كريستينا غرف المنزل المتعددة، تتمعن في صور عائلة براندون. لم تعثر على اي اثر لصورة ابن تشارلز ومارسيل براندون.

ازداد فضولها، لكنها قررت كبت دوافعها. تعرضت العائلة في الماضي القريب لمأساة مؤسفة ذهب ضحيتها كل من كاري ومادلين. ربما حدثت مأساة اخرى اكثر ايلاماً لا يأتي احد على ذكرها. وصممت كريستينا ان لا تنكأ الجراح، ولن تعدم وسيلة الى ذلك.

ثم بدأت التطورات تتوالى...

اخذت، بدون ارادة منها، تلتقي بثيو اكثر فأكثر. ولاحظت انه يندفع الى تعزيز صداقتهما، تشجعه موافقة جدته على هذه الخطوة. رفضت كريستينا دعواته لركوب الخيل، والسباحة قرب شاطئ يقع في الطرف الآخر من الجزيرة، وذلك بحجة وجع كاحلها. ولكن هذه الاعذار لم تمنعه من الانضمام اليها ساعة تنزهها في الحديقة بعد العشاء. واطمأنت الى رفقته وهي تلاحظ اقتصار احاديثهما على المواضيع العامة، وبعض المداعبات الكلامية البريئة.

واكتشفت انها ما ان تهم بالاسترخاء قرب حوض السباحة، لتتمتع بأشعة الشمس حتى كان ثيو يهرع الى جانبها. فاجأها هذا التصرف، اذ ظنت ان اعمال المزرعة تستحوذ على معظم وقته. كان دائم الشكوى حول المزرعة والعاملين فيها، وخاصة المشرف الذي يقطن مع زوجته وولديه في كوخ ريفي وسط

المزرعة.

وهي لا تزال تحفظ اسم المشرف العام كلايف مينارد حيث التقت به وبعائلته اثناء جولة في المزرعة قامت بها بصحبة ثيو. وتذكر خفة السيد مينارد في الاجابة على كل اسئلتها، وكيف اصر على تقديم طعام الغداء لهما في كوخه. واسترسلت في الحديث مع زوجته لورنا مينارد التي طهت طبقاً شهياً من الدجاج والأرز. لكن ثيو ظل يتأفف مبدياً تبرمه. وانقذ الموقف اعلان كلايف عن اضطراره للعودة الى العمل، فانفض شمل الجميع.

وتذكر ايضاً مدى استياء ثيو عندما لامته على تصرفه وهما في طريق العودة حيث قال ببرودة:

- ان كلايف اداري كفؤ وينال مرتباً عالياً. ولا اجد اية ضرورة لعقد اواصر الصداقة بيننا.

تفرست كريستينا في وجهه معلنة:

- وانا موظفة كذلك، ولكنك لا تعاملني بالاسلوب نفسه.

ابتسم ثيو قائلاً:

- انت من نوع آخر يا عزيزتي.

بدا جوابه غامضاً، فلزمت كريستينا الصمت واجمة.

وكم كان سرورها عظيماً عندما دعاها لتناول العشاء معه في احد المطاعم، واعتذرت بحجة انهماكها في كتابة بعض الرسائل. وبررت رفضها فيما بعد بأن عمدت الى كتابة رسالة الى السيد فريث. كتبت رسالة طويلة، وهي تجلس في غرفتها.

وصفت له المنزل وشرحت معنى اسمه. وروت له ما تعرفه عن تاريخ العائلة. وتعمدت تحرير رسالة خفيفة مسلية، مشددة على النواحي السارة من حياتها في سانت فيكتوار. كانت تريد ادخال الطمأنينة الى قلب السيد فريث، وتبديد اي مخاوف قد تساوره حول عملها الجديد.

لكن ثيو لم يعتبر رفضها للدعوة اكثر من خيبة امل عابرة، وانتهز فرصة وجود جدته ليسألها ثانية. ولم تجد مهرباً من ابداء موافقتها وهي ترى السيدة براندون منفرجة الأسارير تبدي تأييدها لاقتراح حفيدها.

ومضت الى غرفتها لتبديل ملابسها. قررت ارتداء فستان سهرة بالغ البساطة. ووضعت بعض المساحيق على وجهها.

وعندما همت بهبوط السلم، رأت ثيو يقف مزهواً ببذلة جديدة في البهو، ولاح لها شاباً ناضجاً لأول مرة. تقدم صوبها، متناولاً يدها، وهم بتقبيل كفها، هاتفاً:

- يا للجمال الساحر!

سحبت يدها على عجل، مضطربة البال. ثم لاحظت ان السيدة براندون تقف امام باب الصالون تراقبها بشغف، وما لبثت ان تمنت لهما سهرة ممتعة، وناشدت ثيو لقيادة السيارة بحذر، وعدم التأخر كثيراً، ومضت في سبيلها.

قال ثيو وهو يفتح باب السيارة المكشوفة:

- سنتناول العشاء في فندق مونت فورت. ثم نذهب بعد ذلك الى ناد ليلي.

استرخت كريستينا في مقعدها الوثير المبطن:

- انها فكرة رائعة.

وانطلقت بهما السيارة تنهب الأرض نهباً، متوجهة الى سانت فيكتوار. بدت الطريق هذه المرة اقل ازعاجاً، رغم حفرها الكثيرة، ومنعطفاتها الحادة.

ولمحت كريستينا من نافذتها صخرة شاهقة، تنحدر صوب البحر، وتمر الطريق عبرها على نحو منذر بالخطر. حبست انفاسها، واشاحت بنظرها متمنية ان يكون ثيو سائقاً ماهراً، كما كان يتبجح امامها.

انفرجت اساريرها وهي ترى في البعيد اضواء المدينة الخافتة. وسمعت ثيو يعلن:

- انه موسم السياحة الآن. نحن لا نشجع السياح على المجيء. ولكن صاحب الفندق بليرز، وابن عمي ديفلين وشلته يجنون ارباحاً طائلة من هذا النشاط.

علقت كريستينا بحذر:

- ان السياحة تجارة مربحة.

وابتسم معتذراً:

- لولا معارضتنا لكانوا سيطروا على المزرعة، وحولوها الى حدائق للتسلية. اننا في الواقع نملك معظم الأراضي هنا، ونسيطر على اعنة الأمور.

التزمت كريستينا بالصمت. فكرت ان التمتع بالسلطة وقوتها تجربة مقلقة، تنذر بعواقب لا طائل تحتها. وحالما ان

تنتمي الى مجموعة تحوز هذه المواصفات، وداعبها بعض الاعتزاز في آن معاً.

ولمست معنى هذه السلطة وهما يتناولان العشاء. كان الطعام شهياً، فاخراً، ووجدت نفسها تحيطها هالة من الاحترام والتبجيل وكأنها احدى الاميرات. وراحت تراقب ثيو بحرج شديد وهو يلقي الأوامر يميناً وشمالاً، ويرفض هذا الطبق، او ذاك، مؤنباً النادل بأسلوب مهين.

كادت تختلق عذراً واهياً لانقاذ نفسها من هذه الأجواء الخانقة.

لماذا لا تدعي انها تعاني من صداع رهيب وتفر من ثيو وغطرسته واستبداده؟

وما ان فتحت فمها حتى انبرى ثيو بالاحتجاج، والرفض القاطع لاي عذر من اعذارها. اقترح عليها ان يسيرا على الاقدام الى النادي الليلي، وتنشق بعض الهواء العليل لتبديد صداعها. واظب على الحاحه الى ان رضخت للامر الواقع.

دخلا النادي الليلي فوجدته مزدحماً بالسياح، ورغم اعتراض عائلة براندون. انتهزت هذه الفرصة الذهبية لتعلن:

- يبدو اننا لن نجد مكاناً.

تجاهلها، ونادى احد الموظفين باشارة من يده. وبسرعة عجيبة وجدت نفسها امام طاولة معدة سلفاً، تزينها الشموع وباقة من الزهور. قالت كريستينا وهي تجلس على كرسيها:

- انهم يعاملونك كأنك الحاكم المطلق.

رد بفتور:

- انه تصرف طبيعي، ستعتادين عليه.

جلب النادل بعض المرطبات. احتست عصير الاناناس لترو ي ظمأها، مجيلة الطرف فيما حولها. لاحظت انها محط الانظار. وترامت الى اذنيها موسيقى صاخبة، تتماوج بين الجدران كتدفق شلالات المياه في كهف عميق. همس ثيو:

- هل ترقصين؟

- بعد هنيهة.

كانت الموسيقى تصدح بأنغام سحرية، ووجدت نفسها تتابع ايقاعها وهي تنقر الأرض بقدميها. ومع ذلك، لم تكن ترغب في الرقص. تصورت منظر اندفاع الناس لاخلاء فسحة مريحة امام ثيو، وتخيلت نفسها وسط حلقة الراقصين والراقصات، والكل يحدجها بنظرات استغراب وتعجب. لا، لن تشترك في هذه المسرحية، خاطبت نفسها.

اخذ ثيو يتلفت حوله، متسائلاً بصوت مرتفع:

- لا ادري من اين جاء كل هؤلاء الناس. سيصبح هذا النادي مكاناً لا يطاق اذا استمر الوضع هكذا!

وسمعته يهتف فجأة، وكأنه لمح وجهاً اليفاً. نهض ببطء وامتعاض ظاهر. قال يخفي دهشته:

- يا له من عالم صغير!

رد ديفلين براندون:

- انها جزيرة صغيرة جداً.

جلب نادل كرسياً جلس عليه ديفلين بدون استئذان. احست كريستينا بغثيان في امعائها. حدجها، ولوى فمه بابتسامة باهتة.

اما ثيو فكان يتلظى غيظاً، وغمغم:

ـ لم اكن اتوقع رؤيتك هنا هذا المساء.

رد ديفلين بفتور:

ـ طبعاً. ولكن احب ان ارعى استثماراتي بدقة.

امتعض ثيو:

ـ ان جدتي على حق. لقد قالت لي انك تستثمر اموالك بالتعاون مع بلبزر وفرميتون. ان تصرفك يعد خيانة لاسم العائلة.

اخرج ديفلين علبة فضية من جيبه واشعل سيكارة. ونفث قائلاً:

ـ لا يحق لك يا عزيزي ثيو التعليق على امور كهذه.

كانا يتحدثان بألغاز غامضة، فات كريستينا معناها. قاطعت هذه المهاترة، او هكذا خيل اليها:

ـ من فضلكما. رجاء ليس هنا امام الناس.

نظر اليها ديفلين باستخفاف:

ـ لا تشغلي بالك. سنعلن في العام المقبل عن كل خلافات عائلة براندون، وبأسلوب يجذب المزيد من السياح. اما انت يا عزيزتي كريستينا فستكونين ضحية بريئة.

يا له من كابوس رهيب، فكرت كريستينا. الم يكن من

الافضل لها الاكتفاء بالتنزه في الحديقة؟ ها هي تتورط اكثر فأكثر، ولن يتورع ديفلين، هذا الابليس اللعين، عن كشف قصتها كاملة عندما عادت معه الى كوخه الحقير. وفجأة رجع النادل ينحني قائلاً:

ـ مطلوب على الهاتف سيد براندون.

تنفست الصعداء، ثم خابت آمالها. كان النادل يخاطب ثيو وليس ديفلين. وحملق ثيو في النادل متعجباً:

ـ انا؟ ولكن من يريدني؟

ووقف على قدميه، ومشى وراء النادل.

جلست كريستينا صامتة، متمنية لو ان ديفلين يتركها ويعود من حيث اتى. كان وجوده قربها، لا يفصل بينهما سوى طاولة صغيرة، مقلقاً، يثير في نفسها مشاعر غريبة لا تدري كيف انتابتها. قررت الاعتصام بالصمت وتجاهله.

قال كأنه يقرأ افكارها:

ـ انها خطة فاشلة (وشدها من معصمها) تعالي نرقص.

اشتعلت وجنتاها خجلاً:

ـ لا . اليك عني.

تابع باصرار:

ـ اما ان نرقص او نتصايح امام الناس. واياك التعلل بكاحلك. انك معافاة تماماً، وتعرفين ذلك جيداً.

رضخت بامتعاض. وقادها الى حلبة الرقص. حاولت الاحتفاظ بمسافة بينهما، وهو يلفها بذراعيه. احست به يشدها

نحوه، فاستكانت كأن قوة سحرية تجذبها. ما هو سر هذا الرجل؟ سألت نفسها. وكيف تسمح لعواطفها بالاستسلام له. وهي تعرف مدى خبثه، وكره عائلة براندون له؟

تمعن في وجهها لحظة، ثم سألها:

- متى سيطلب ثيو يدك؟

حبست انفاسها:

- ماذا تقول؟ هل تريد الايقاع بيني وبين ثيو؟

استطرد مازحاً:

- لا تتظاهري بالغباء. ما معنى وجودكما هنا الليلة؟ ولماذا اتيت من انكلترا في المقام الأول؟

ازداد صخب الموسيقى. وافلتت من ذراعيه. ظلت تدور حوله وكأنها تغرق في حفرة رمال لا قرار لها.

الح بصوت اجش:

- اريد جواباً. أليس صحيحاً ما اقول؟

تنهدت مرتاعة:

- كلا. لقد شرحت لك سبب مجيئي الى سانت فيكتوار، لماذا لا تصدقني؟ انا . . . انا لم اكن اعلم بوجود ثيو حتى وصلت الى ارك اينجل. وهو ليس خطيبي، فانا بالكاد اعرفه.

بدت عيناه كالجليد:

- انا لم اكن اتحدث عن الحب. ومدى معرفتك له مسألة لا اهمية لها. الم تذكري لي بنفسك انك مدقعة لا تملكين درهماً. وربما كنت تبحثين عن زوج ثري مثل ثيو.

كادت ان تلطمه بجماع قبضتها. ولكنها ارتأت افحامه باسلوب اخر:

- هل تعتقد انني معروضة للبيع؟

خرجت الكلمات من فمها حادة، تقطر المرارة منها. وعجبت لقلقها الزائد واهتمامها بآراء ديفلين، وكيفية اعتباره لها.

هز كتفيه، ممعناً في سخرية لاذعة:

- ان عمتي هي التي تقرر ذلك. ولا اعتقد انها اتت بك الى هنا بدون ان تتأكد من اتمام الصفقة.

تجهم وجهها.

- انت مخطىء. ولكن لا الومك على اساءة فهمي. لقد اخبرتني عمتك عن مدى خيبة آمالك لحرمانك من الارث. واستطيع ان اتصور لماذا لا تريد ان اعقد قراني على ثيو. ولكن ما لا افهمه هو اعتبارك اياي كجزء من مؤامرة دنيئة لتجريدك من اي حق لك في ارك اينجل.

قال:

- انا ابرئك من التورط في اي مؤامرة دنيئة. ان المؤامرات بدأت منذ سنوات عديدة، وقبل ان تدري عمتي بوجودك. ولكن هذا لن يغير شيئاً. اذا كنت تؤمنين فعلا بكل كلمة تقولينها، فستغادرين هذا المكان، وتعودين الى انكلترا بأسرع وقت.

توقف عزف الموسيقى. وتفرق الجميع، عائدين الى

طاولاتهم. استدارت كريستينا تهم بالذهاب، مرددة:

ـ سبق ان قلت لك انه يستحيل علي الرجوع. والآن ارجوك ان تدعني وشأني.

شدها من يدها:

ـ تريدين مني ان اتركك وشأنك مع ثيو!

شمخت بأنفها:

ـ نعم، اذا كنت تعتقد ذلك.

وسحبت يدها بعنف، وسارت متثاقلة نحو طاولتها.

كانت اعصابها كالوتر المشدود. يا لها من مهزلة! فكرت والندامة تعضها. لقد نجحت في اغضاب ديفلين، ولا شك ان ثيو ينتظرها غاضباً هو الآخر.

ولكنها اخطأت التقدير. رأت ثيو يجلس مبتسماً، بادي الارتياح. اثنى عليها قائلاً:

ـ انك تجيدين الرقص تماماً (ثم تفرس في ملامحها) هل انت بخير؟ يبدو عليك الشحوب.

واغتنمت كلماته قائلة:

ـ انني اعاني من صداع حاد.

ـ لا تقلقي. هيا بنا. آن لنا ان نعود قبل ان ينفد صبر جدتي.

فوجئت كريستينا برباطة جأشه، ودماثة اخلاقه وهو يمضي بها الى الخارج. ربما ادرك خطة ديفلين لاستفزازه، فأحبط مساعيه. فكرت كريستينا ان ثيو انضج عقلاً مما كانت تظن.

استلقت فوق مقعد السيارة، واسندت رأسها الى الوراء، مصممة على التزام الصمت المطبق. وكأنها تعاني فعلاً من ذلك الصداع. وغرقت في تفكير عميق بينما كان ثيو يركز انظاره على الطريق الملتوية.

استعادت كلمات ديفلين براندون. هل تصدق آراءه؟ حدثها بمنتهى الجدية وكأن زواجها من ثيو قدر لا يرد! مع ذلك، انه شخص يعاني من المرارة، ويكن حقداً شديداً لعمته وحفيدها، وكل عائلة براندون. اذن ما يقوله ليس اكثر من تنفيس لاحقاده الدفينة، ومجرد وهم من الأوهام.

انعطفت السيارة مخلفة وراءها تلك الصخرة الشاهقة التي ارعبتها. اغمضت كريستينا عينيها. وتابعت افكارها. قررت ان ديفلين مجرد انسان خسيس، لن تسمح له بالاقتراب منها بعد الآن. وستطرد شبحه من ذهنها، وتنساه، وتدفن ذكراه في طيات المجهول.

احست بالاعياء الشديد عندما توقفت السيارة امام المنزل. تمنت لو تتوجه تواً الى غرفتها، وتوصد الباب وراءها، لكن امانيها ذهبت ادراج الرياح.

كان ثيو يلح عليها للاستراحة قليلاً في الصالون، واحتساء بعض القهوة، ويعلن لها ان السيدة كريستوف ستجلب لها مسكناً يزيل صداعها. اذعنت لرأيه، بعد ان ابدت اعتراضاً غير مقنع، لم تعجبها فكرة خلوتها مع ثيو مجدداً، وتنفست الصعداء عندما رأت السيدة براندون لا تزال مستيقظة، تجلس

تنتظرهما.

جلس ثيو بجانب جدته، مقبلاً يدها، ثم انطلق يروي لها احداث الليلة وعلى نحو لا تذكر منه شيئاً. عدد لها، مثلاً، قائمة طويلة من الناس الذين التقيا بهم في الفندق والنادي، وبطريقة توحي بأنهما قضيا الوقت وسط مجموعة كبيرة وليس وحدهما. ولم يأت على ذكر ديفلين، فأدركت كريستينا ان التغاضي عنه مسألة بديهية.

دخلت السيدة كريستوف حاملة صينية القهوة، فنهضت السيدة براندون، ومضت نحو الباب بعد ان طبعت قبلة على وجنة ثيو، وتمنت لكريستينا ليلة سعيدة.

وما ان توارت السيدة براندون، وأغلقت الباب وراءها، حتى استدارت كريستينا نحو ثيو تعاتبه:

ـ لماذا لم تخبرها حقيقة ما جرى؟

رفع ثيو كتفيه بحركة لا مبالية:

ـ لانها لم تكن تريد سماع ذلك. عليك ان تتعلمي كيفية التعامل مع جدتي. وهذا ما ستكتشفينه مع مرور الوقت.

انحنت كريستينا تلتقط فنجان القهوة، ورشفت قليلاً منه بشفتين مرتجفتين.

استطرد ثيو:

ـ كانت مسرورة للغاية الليلة. ارتاحت الى رؤيتنا نجلس سوية. ان احدنا يكمل الآخر، الا تعتقدين ذلك؟

علقت كريستينا، مضطربة البال:

ـ اشعر بالارهاق، والأفضل ان آوي الى الفراش.

علت ملامحه ابتسامة ذات معنى:

ـ هل تنوين تمثيل لعبة القط والفأر؟

صاحت ساخطة:

ـ انك شاب وقح.

اقترب منها قليلاً:

ـ لا يمكنك خداعي. هل تفضلين ديفلين علي؟ اتظنين انني لم الحظ كيف كنت تراقصينه؟ انا لست غبياً يا كريستينا.

وانقض عليها كالذئب الكاسر، وانحنى بثقله فوقها. استجمعت قواها، وركلته بقدمها، فتدحرج فوق ارض الغرفة. استلقى على ظهره يحدق فيها. ثم اخذ ينتحب كالطفل الرضيع.

انتابها الذعر:

ـ بحق السماء يا ثيو، ما الذي دهاك؟ ما هذا العويل؟

نظر اليها والدموع تنهمر من مقلتيه:

ـ كيف لا ابكي وانت تعاملينني بهذه القسوة؟

قالت غاضبة:

ـ كف عن هذا الهراء. هل كنت تتصور انني سأستسلم لرغباتك الجامحة.

قال راكعاً على ركبتيه:

ـ لا. لا. انك تسيئين فهمي. فقدت السيطرة على نفسي وانا آسف جداً. لا اعرف كيف اعتذر منك. ارأفي بي يا

كريستينا، انني احبك...

انتفضت واقفة:

- اخرس! لن ادعك تخاطبني بهذه الكلمات المعسولة!

اجاب متوسلاً:

- غضبت مني لانني كذبت على جدتي، ولم اكن صادقاً معها، وتغضبين مني الآن لأنني اقول لك الصدق. سامحيني يا كريستينا. لم اكن انوي اطلاعك على حقيقة مشاعري، ولكن عندما رأيتك مع ديفلين، وعرفت كيف يتآمر لابعادك عني، كادت الغيرة تقتلني.

يا له من كابوس رهيب! فكرت كريستينا مجيبة:

- لا يحق لك ان تشعر بالغيرة، ولا يوجد اي مبرر لذلك.

نهض على قدميه، وحلق في وجهها:

- اسمعي يا كريستينا. اتذكرين تلك المكالمة الهاتفية في النادي؟ ذهبت الى الهاتف فوجدت السماعة مقفلة، فعرفت انها خدعة. ولما عدت كنت ترقصين معه. فاتضح كل شيء. كانت المكالمة مجرد خدعة لابعادي عن طريقه. ان ديفلين رجل حاقد، فهو يحقد على جدتي ويحقد علي، ويتمنى تدمير حياتي، وسلبي فتاتي.

قالت كريستينا بلهجة واثقة:

- دعنا نؤكد حقيقة واحدة. انا لست فتاتك.

خيم صمت مثقل بالتوتر. ادار ثيو ظهره، واعترض بصوت مخنوق:

- انت تقولين ذلك لجرح مشاعري.

اجابت بنعومة:

- كلا يا ثيو. انها الحقيقة. انا لم ارغب خداعك منذ البداية. وابدي اسفي اذا ما جعلتك تسيء تفسير دوافعي بالذهاب معك الى النادي. انه خطأ لن اكرره. تصبح على خير.

اوصدت الباب، واتكأت عليه لحظة تستعيد هدوءها. ثم سارت بخطوات وئيدة الى غرفتها.

خلعت ثيابها، ودخلت الى الحمام، وملأت الحوض بالماء الحار. انتعشت قواها قليلاً، وهي تتمتع برغوة الصابون والبخار. مع ذلك، ظلت تساورها الشكوك وهي تلمس لمس اليد صحة رأي ديفلين براندون، وصدق كلماته.

كانت متأكدة من عدم تشجيعها لثيو على الاعتقاد بأنها اصبحت ملكاً خاصاً له. لا بد ان السيدة براندون هي التي دفعته الى وضع كهذا. وطالما لاحظت علامات الرضى ترتسم على محياها كلما رأتهما سوية. ولكنها، فكرت كريستينا، فتاة معدمة غريبة، وتعرف ان هذه الأمور ذات اهمية بالنسبة الى عائلة مثل عائلة براندون. اذن لا يوجد سوى سبب واحد.

هل يحبها ثيو حقاً؟ خرجت من الحمام، واخذت تجفف جسمها بمنشفة كبيرة. حاولت النظر الى المسألة بتجرد وموضوعية.

لا يخالجها ارتياب حول اعجاب ثيو بها، ولكن الحب قصة اخرى! لم يبدر منه على ما يدل على حبه لها. ان تصرفه معها

يتصف بالرعونة، وغياب الحنان، واللطف والاحترام.

ارتدت قميص نومها، ووقفت امام المرآة تتأمل شكلها وملامحها. انها ضامرة القوام، غير مكتملة النمو، فكرت بتململ، ولا تملك اية مواصفات مغرية، تدفع الرجال الى الهيام بها.

قررت ان دوافع ديفلين سيئة النية، وتهدف الى استغلال براءتها، كما حدثتها السيدة براندون، اما دوافع ثيو فهي اكثر تعقيداً.

راحت تضرب اخماساً بأسداس الى ان قر رأيها على الرحيل من ذلك المكان وبأقصى سرعة. ستقابل السيدة براندون وتقدم لها استقالتها. ومن ثم تكتب رسالة الى السيد فريث تشرح له الوضع، وتتوسل اليه ليقرضها بعض الدراهم لتتمكن من العودة الى انكلترا. وما ان تستقر في بلدها حتى تبحث عن اي عمل وتدفع له القرض بشكل او بآخر.

وضعت يدها على رأسها. انها تعاني الآن من صداع حقيقي. صعدت الى فراشها ودفنت وجهها في وسادتها واستسلمت لملاك النوم. مرهقة، قلقة البال.

٦ - لن اتخلى عنك

ما ان ارتدت ملابسها في صباح اليوم التالي، حتى توجهت كريستينا الى غرفة السيدة براندون. قرعت الباب، ففتحته بولالي بوجه عابس، وكادت ان تغلقه ثانية معلنة:

ـ الأفضل ان تعودي في وقت لاحق. السيدة براندون لا تستطيع رؤيتك الآن!

دفعت بولالي جانباً، ودخلت الى غرفة الجلوس:

ـ ارجوك ان تخبريها عن حضوري.

ترددت بولالي لحظة، ثم مشت متأففة نحو غرفة النوم.

ظلت كريستينا واقفة قرب النافذة الكبيرة تمعن النظر في جمال الحدائق وزرقة البحر المتلألئة في البعيد. ادركت كم سيصعب

عليها الرحيل عن هذا المكان، بعد ان الفت عالمه الغريب.
تراءى امامها الشاطىء الفضي، واشجار النخيل المحيطة به، وغمر احاسيسها دفء المياه المترقرقة. انها مناظر لن تنساها ابداً. وستحمل معها ذكريات اليمة ايضاً، وخاصة ذكرى ديفلين براندون بكل عباراته وآرائه وحركاته وهمساته الخبيثة. احست في قرارة نفسها ان شبحه سيظل يلاحقها مهما ابتعدت عنه. كان جزءاً لا يتجزأ من كل هذه الأجواء، من المنزل، والشاطىء وجزيرة سانت فيكتوار، وحتى المارتينيك.

تنهدت متحسرة، واستدارت تلقي نظرة متبرمة على باب غرفة النوم المغلق. بدا لها ان السيدة براندون تتعمد التلكؤ في الاستجابة لطلبها. ربما ترامت الى مسامعها احداث الليلة الفائتة، وهي تعبر عن استيائها بأسلوبها الخاص. ولعلها تنوي طردها من عملها، ولا حاجة الى تقديم استقالتها. ثم لم تلبث كريستينا ان طردت هذه الفكرة من ذهنها. لا، ان السيدة براندون تبذل قصارى جهدها لانشاء علاقة حميمة بين حفيدها وفتاة مجهولة، متواضعة الحسب، ولدت صدفة في انكلترا. ولكن ما الذي ترمي اليه من وراء هذه العلاقة؟ فكرت كريستينا ملياً. لا اهمية لذلك الآن. كل ما تريده هو الرحيل، والابتعاد ليس عن ثيو، بل عن ديفلين اللعين الذي كادت ان تخضع لاغرائه. هالها ان تتجاذبها نحوه هذه المشاعر الدفينة، الغامضة.

انفتح باب غرفة النوم، واطلت بولالي تومىء برأسها علامة

استعداد سيدتها لاستقبال كريستينا.

كانت السيدة براندون جالسة في سريرها، متوشحة بغطاء حريري، ارجواني اللون، ومنكبة على ما وصلها ذلك الصباح من رسائل. رفعت حاجبيها، ترحب بكريستينا:

- صباح الخير يا عزيزتي. انها زيارة مبكرة. هل من مشكلة؟

احنت كريستينا برأسها، وجلست على كرسي ملاصق للسرير. وادهشتها دماثة السيدة براندون الى حد اخجلها. ولمست يدها قائلة:

- ما هي المشكلة؟ هل انزعجت من قضاء السهرة ليلة امس مع ثيو؟

اضطربت كريستينا:

- هل بلغتك اخبار ليلة امس؟

ردت السيدة براندون بهدوء:

- طبعاً يا ابنتي. لا يفوتني اي شيء يجري هنا.

وسارعت كريستينا الى القول:

- اذن لن افاجئك اذا ما قدمت استقالتي وغادرت فوراً.

قطبت السيدة براندون جبينها:

- ولماذا؟

تململت كريستينا فوق كرسيها:

- المسألة واضحة. لا يمكنني البقاء هنا بعدما جرى.

هزت العجوز برأسها:

- ولم لا؟ لأن صبياً احمق فقد صوابه في لحظة عابرة تريدين

التخلي عني؟ ان تصرفك يذهلني. هذه مسائل تتعرض لها كل فتاة مثلك.

اجابت كريستينا بصوت خفيض:

- من السهل عليك اعتباري فتاة ساذجة. لكنك لم تشهدي بأم عينك حقيقة ما جرى.

استطردت السيدة براندون:

- اعرف ما فيه الكفاية. اعترف لي ثيو بكل شيء. وهو يأسف جداً لتمزيق اكمام فستانك، ويبدي استعداده لمرافقتك الى المارتينيك كي يشتري فستاناً جديداً...

قاطعتها كريستينا:

- يبدو انك يا سيدة براندون مصرة على تجاهل ما قلته لك. طلبت منك قبول استقالتي.

تحولت عينا العجوز الى قطعتي جليد:

- لا يا كريستينا. لست مستعدة ان اقبل ذلك. انك فتاة جذابة، وآن لك ادراك هذا. واوافق على ان ثيو تمادى.

لم تدعها كريستينا تسترسل في عبارتها:

- لا فائدة من الاعتذار والتملق. اوضحت لك موقفي، ولا انوي التراجع عنه.

علت مسحة من الشحوب وجه السيدة براندون، وبدأت شفتاها بالارتجاف كورقتي خريف:

- من الافضل لك يا كريستينا اعتبار حديثك مجرد زلة لسان. يمكنك الانصراف الآن. عندما تهدأ اعصابك سأرسل

ثيو ليعتذر منك. وارجو الا تخيبي ظني بك فتصفحي عنه.

ازدادت كريستينا استياء وهي تتصور لقاء عاطفياً جديداً بينها وبين ثيو:

- لا حاجة الى ذلك. ارجوك. لا اطلب اكثر من قبول استقالتي، والسماح لي بالرحيل في نهاية الشهر.

اجابتها السيدة براندون بحنق ظاهر:

- ان ما احاول قوله هو انه يستحيل عليك مغادرة هذا المكان، والرحيل بهذه البساطة. لا يمكنني التخلي عنك يا عزيزتي.

امعنت كريستينا في استفزازها:

- لماذا؟ لانك وضعت خطة لتقرير مستقبلي!

قررت العجوز مهادنتها:

- ارجو المعذرة يا كريستينا. يبدو انني اخطأت التقدير، ولن تتيح لي الظروف تحقيق امنية عزيزة على قلبي وقلب عمتك. انك ترفضين هذه الامنية بكل قواك، واستميحك عذراً اذا ما اغضبتك.

حملقت كريستينا في قسماتها. اربكها تواضع ربة عملها المفاجىء. وماذا قالت بالضبط؟ استفسرت علها تبدد مخاوفها.

- اتيت على ذكر عمتي غريس...

اجابت السيدة براندون بانحناءة من رأسها:

- عقدنا اتفاقاً ونحن على مقاعد الدراسة، فالتزمت ان انجب ابناً، والتزمت هي بانجاب ابنة، ويتزوجان عندما

يبلغان سن الرشد. وحافظ كل منا على هذا الاتفاق. ولهذا السبب ذهبت الى انكلترا ساعة اعلان وفاة عمتك في الصحف وجلبتك الى هنا لتحقيق وعد قطعته على نفسي.

جلست كريستينا صامتة، مشوشة الافكار. وجدت صعوبة في تصديق كلمات السيدة براندون. هل تريد القول ان عمتها غريس عقدت معها صفقة حول مستقبلها هي؟ ألهذا السبب اتت الى هنا لتنفيذ شروط الصفقة التي تخصها، ولم تكن تدري بوجودها؟ غمرتها موجة من اليأس القاتل، فقررت الافصاح عن رأيها بوضوح:

- انني آسفة. لم يكن لي علم بكل ذلك، والا لما كنت اتيت الى هنا. لا شك ان الكثيرين يرسمون خططاً كهذه لمصلحة البنين والبنات. ولكن نادراً ما يتوقعون تنفيذ هذه المشاريع حرفياً عندما يبلغ الأولاد سن الرشد.

توهجت عينا السيدة براندون ببريق عجيب:

- هذا ما توقعته. ولم يغب عن بال عمتك موقفاً كهذا. فكري في مستقبلك قليلاً يا كريستينا. ما الذي تأملينه؟ تقلد منصب هام؟ انها مسألة بعيدة الاحتمال، وانت تنقصك المؤهلات اللازمة. ان الزواج هو الحل الافضل، لا بل الوحيد، الا اذا كنت تريدين قضاء حياتك عانساً وعالة على الآخرين.

تسارعت نبضات قلبها، فاكتفت كريستينا بالقول:

- شكراً على نصيحتك الثمينة، وتصويرك الأمور بهذه

الصورة القاتمة.

اتكأت السيدة براندون على وسادتها، وأشارت:

- احاول ان اكون واقعية. لا ادري لماذا يقلقك الزواج من حفيدي. الا يعجبك ان تكوني سيدة ارك اينجل؟

اطرقت كريستينا برأسها. نشب في داخلها صراع عنيف لا بد لها من حجبه عن السيدة براندون، وعدم اعطائها فرصة استغلاله لمصلحتها. دغدغت احلامها فكرة بقائها في ارك اينجل، والتمتع بهذه الرفاهية، والثروة الطائلة التي تراود مخيلة الملايين من الناس. ولكن، وفي الوقت نفسه، رن في اعماقها صوت ديفلين هازئاً، محذراً، فارتعدت فرائصها هلعاً. لا يمكنها الزواج من ثيو، او من اي شخص اخر لا تكن له حباً عميقاً. علمتها تجربتها القصيرة، المبتورة اشياء كثيرة حول اسرار القلب، والعواطف المشبوبة. وهي تعرف معرفة اكيدة ان ثيو لا يثير فيها اي احساس بالحب، كما تفهم الحب وتفسره. داهمها الشعور بالشفقة والذنب. ان ثيو يعرض عليها الزواج بالخلاص وصدق نية ومع ذلك لا تبالي به، بل تمتعض من اهتمامه بها. في حين ان ديفلين، الذي تعشق طيفه بدون مبرر، ينظر اليها كمجرد دمية للتسلية. مع ذلك، يتحتم عليها مواجهة الحقائق كما هي، ومهما كانت الآلام والعقبات.

رفعت رأسها ورمقت السيدة براندون:

- انا آسفة. لا يمكنني الزواج من ثيو.

تجهم وجه السيدة براندون:

ـ ان في العجلة الندامة يا ابنتي. انت ما زلت في مقتبل العمر، وامامك متسع من الوقت لاتخاذ قرار حول هذه المسألة (وعلت وجهها ابتسامة شاحبة واستطردت) ان الانكليز مثاليون جداً، ويحلمون دائماً بالحب الحقيقي الصافي. ان الأرض، يا ابنتي، والعقارات، واستمرار الميراث، هذه هي الأمور الهامة في الزواج. لم تخطر على بالك هذه الاشياء لأنها كلها بعيدة عن اجوائك السابقة! سأترك لك مجالاً رحباً للتفكير والتمعن في هذه المسائل. لست في عجلة من امري. اما الآن يا عزيزتي فيمكنك الانصراف. ارسلي الي بولالي وانت في طريقك الى الخارج.

مضت كريستينا الى غرفة الجلوس، وهي في حالة يرثى لها. ما هذه الورطة المرهقة؟ تساءلت يائسة وهي تعود الى غرفتها. تنوي تقديم استقالتها منذ لحظات قليلة، وها هي تحمل معها نص الاستقالة، وتطويه في جيبها كأنه خطأ شنيع. وتتعرض لشتى الضغوط لكي تتزوج نيو، وبطريقة طبيعية، ولا اثر لاحترام مشاعرها في كل ما يدور كأن المسألة لا تعنيها مباشرة.

قررت ان تعيد الكرة، وتقدم حججاً دامغة تثبت عبرها شخصيتها، وحريتها في رسم مستقبلها. ولكن ما الفائدة؟ عليها الرحيل عن هذا المكان. لماذا لا تذهب الى المارتينيك على الأقل، وتشتغل هناك لاعالة نفسها، وتوفير ثمن تذكرة العودة؟ هذا اذا رفض السيد فريث مساعدتها.

تلخصت مشكلتها الاساسية في كيفية الذهاب الى

المارتينيك. كان باستطاعتها الطلب من لويس ليقلها بالسيارة الى الميناء، حيث يرسو المركب المتنقل بين سانت فيكتوار والمارتينيك. ولكن لويس موظف يعمل لدى السيدة براندون، وقد يشي بها. اذن ليست طليقة، حرة الارادة كما توهمت.

داعبت خيالها فكرة اللجوء الى كلايف ولورنا مينارد. ان لورنا ستساعدها اذا ما عرفت حقيقة الأمر. ولكن هل يحق لها جس نبضها؟ ان كلايف هو الاخر موظف لدى عائلة براندون، ومن الخطأ التوقع منه تعريض وظيفته للخطر.

دفنت رأسها في راحتيها، تحاول ايجاد حل لورطتها. وادركت انه يوجد امامها خيار واضح ينهي محنتها اذا ما وطدت النفس على تنفيذه.

ان ديفلين براندون يملك مركباً يبحر فيه جيئة وذهاباً. وهو، علاوة على ذلك، طلب منها، وبكل وضوح، مغادرة سانت فيكتوار. هل سيكون عند حسن ظنها، ويبدي استعداده لتقديم خدماته؟ لا محالة سيرفض مساعدتها، طالما انه لا يشعر بأي ولاء لعمته وهو الذي اعلن ذلك مراراً.

ولكنها هي، كريستينا، مدينة له بالشيء الكثير. هل يجوز لها التماس مساعدته؟ الم يحذرها من عدم اللجوء اليه عندما تسوء احوالها؟ وهي الآن تلجأ اليه متضرعة، ويا لذلها اذا اشاح بوجهه عنها!

مشت متثاقلة نحو النافذة. وسمعت صوتاً في داخلها يقول لها، لا لن يطردها ويرفض مساعدتها، ولكنه سيفرض ثمناً

مقابل اتعابه. ضغطت بيديها على اذنيها، لاخراس الصوت المزعج. لا بد ان تكف عن التفكير في هذه الناحية والا فقدت ما تبقى من بأسها وشجاعتها.

وانسلت عبر السلم الى الحديقة، لا تبالي بصحة ما تقوم به. كانت تلهث، يهدها التعب عندما بلغت الكوخ. توقفت لالتقاط انفاسها. اخذت تجيل النظر متوجسة. لم تعثر على اي اثر لمركب ديفلين، عذراء القمر. وكان الكوخ رابضاً مسدل الستائر، موصد الأبواب.

انتابها قلق أليم. لم يعد امامها سوى العودة الى المنزل وانتظار عودته. هذا ما يجب عليها فعله، حدثت نفسها، وقدماها تشدانها الى الوراء.

تقدمت من الكوخ، فرأت المفتاح لا يزال في قفل الباب. فتحته ودخلت. كان الجو في الداخل خانقاً، يخيم عليه سكون رهيب. خطت بحذر نحو النافذة، وسحبت الستار، فتدفقت اشعة الشمس تغمر الجدران، وتضفي بعض الدفء على قطع الاثاث.

بدا الكوخ بالغ النظافة، مرتباً، ناصعاً. ويوحي كل شيء فيه ان صاحبه لم يغادره لقضاء امر مستعجل، ولن يلبث ان يعود. لا بل يدل على غياب في رحلة طويلة الامد. راحت تبحث عن اي دليل يكشف سره الغامض. تمنت ان تعثر على عنوان او رقم هاتف حيث يمكن الاتصال به. وادركت مدى حماقتها. ان ديفلين براندون لا يهتم بهذه التفاهات. وبأي حق

تسمح لنفسها التطفل هكذا؟ لا حق لها اطلاقاً.

ورأت نفسها امام المقعد الخشبي. هنا يقوم ديفلين بممارسة فن الحفر. ازداد فضولها لاكتشاف نوع العمل الذي يتجه. رفعت الغطاء بحذر، والتقطت قطعة من القطع. كانت تمثل صقراً منفرج الجناحين. تأملته ملياً مبدية اعجابها بأسلوبه الفني البارع. واخذت تتفحص بشغف القطع الاخرى التي لا تقل اتقاناً وتبرز مهارة مرهفة.

وقع نظرها على قطعة ملفوفة بغلاف ورقي. فضت الغلاف وحدقت فيها. جف حلقها. كانت تمثالاً صغيراً لفتاة ساجدة على ركبتيها، ولا تزال تحتاج الى اللمسات الأخيرة ولكنها عرفتها لتوها. ان التمثال يمثل الخادمة يولالي.

اعادت التمثال الى مكانه بأصابع مرتعشة. قفز خيالها الى تلك الليلة عندما لمحت يولالي تتسلل عبر الحديقة. لقد صح توقعها، وتحققت من لقاء يولالي بالفنان ديفلين في هذا الكوخ. لم تعر المسألة اهمية آنذاك. اما الآن فانتابتها ثورة من الغضب. اغرورقت عيناها بالدموع. وادركت مرتاعة انها تعاني من الغيرة، ويشتعل حسد قاتل في شرايينها. يا لحماقتها! لامت نفسها بحدة. استدارت كالمجنونة، وخرجت من الكوخ تعدو هائمة على وجهها.

اكتشفت شيئاً جديداً حول نفسها. لمست واقعاً ملموساً، كانت تخاله مجرد وهم من الأوهام. انها، وبطريقة ما، تحب ديفلين براندون حباً يتيمها.

هزت برأسها مستنكرة عواطفها الجامحة، وهي تتمهل فوق رمال الشاطىء. لا ان ما تشعر به ليس حباً، بل مجرد نزوة عابرة لا علاقة لها بالعاطفة الثابتة التي تضم روحين في عناق ابدي.

رددت بكآبة دامية. لا. لا احبه. وظلت تكرر العبارة كالتعويذة الى ان استقرت ثانية في غرفتها.

شعرت كريستينا بضياع تام في اليومين التاليين. لم تطلب منها السيدة براندون القيام بأي عمل. وواظبت على تناول وجبات الطعام، كأنها تؤدي مهمة شاقة. وكان ثيو يتصرف امامها على افضل وجه، وذلك بعد ان ابدى اسفه الشديد لسلوكه السابق، وحذرته من مغبة عمل طائش كهذا. كان يبذل جهداً خاصاً للتودد اليها، وتجنب كل ما يمكن ان يعكر مزاجها او يغضبها.

ولكنها لم تعد تبالي بمسلك ثيو او بأحلامه. كان يشغلها اكتشافها المفاجىء لمشاعرها الحقيقية. وفي كلا الحالتين يتوجب عليها الفرار من هنا، [illegible] خدعت نفسها. ولا يفصلها سوى الوسيلة الناجحة.

يستحيل عليها الآن اللجوء الى ديفلين، والا كانت كمن يصب الزيت على النار. ومن الافضل لها الرحيل قبل عودته، وقبل ان يخترق بعينيه الحادتين سرها الدفين، ويمزق حجابها الذي يستر عواطفها.

واضحى وجود بولالي معها تحت سقف واحد مسألة لا تطاق. كانت تمر امامها متهادية بغنج ودلال، كأنها تعلن عن

تحديها، وادراكها لصراعها النفسي وآمالها الخائبة، واستحواذها على اهتمام ديفلين، كرمز للجمال والفتنة والسحر.

ازداد عزم كريستينا على الرحيل، ولكن كيف السبيل الى ذلك؟

قررت البقاء الى ان تتلقى الدفعة الأولى من مرتبها، ولم يحن موعدها بعد. ولا يمكنها الطلب من السيدة براندون ان تعطيها سلفة فتثير شكوكها. ولا تريد كذلك ان تغادر وهي تدين لعائلة براندون بشيء.

ويترتب عليها نقل نفسها وحقائبها من البيت الى الميناء بطريقة ما، وربما تطلب سيارة اجرة لهذا الغرض عوض التسلل ليلاً. ولكن ثمة صعوبة اخرى. توجد آلة التلفون في غرفة جلوس السيدة براندون، ولن تتوفر لها فرصة ملائمة لاجراء مخابرة الا في حالات نادرة. تنهدت كريستينا وهي ترى صعوبة جديدة تنتصب في وجهها.

كانت عائدة من نزهة قصيرة على الشاطىء ذات صباح، عندما استدعتها السيدة براندون الى غرفتها. وما ان دخلت كريستينا، حتى تلقفتها العجوز هاتفة:

ـ تعالي يا عزيزتي. علي القيام بمقدار كبير من العمل اليوم. انظري هذه اللائحة من الاسماء والعناوين، عليك طباعتها على غلافات وبسرعة. وصلت بطاقات الدعوات من المطبعة هذا الصباح واود ارسالها بدون ابطاء.

امسكت كريستينا باللائحة تدرسها. كانت تضم اسماء

اعيان الجزيرة. سألت:

- ما هي هذه الدعوات؟

اجابتها العجوز:

- يحل عيد ميلاد ثيو الاسبوع المقبل. وسوف نقيم له حفلة بطبيعة الحال.

راحت كريستينا تقرأ الاسماء المتعددة. لم تجد اثراً لاسم ديفلين. تأكد لها ان عمته حذفت اسمه عمداً تعبيراً عن استيائها منه. هذا في حين ان اصدقاءه من اعضاء اللجنة كانوا من بين الاسماء المختارة. استدارت نحو الباب قائلة:

- سأباشر العمل فوراً يا سيدة.

صاحت السيدة براندون:

- لحظة من فضلك.

ورأتها كريستينا تغالب نفسها للنطق بشيء يقلقها. ثم سمعتها تقول:

- سأكون في غاية السرور يا كريستينا لو ان الحفلة لا تقتصر على الاحتفاء بعيد ميلاد ثيو بل تكون ايضاً حفلة خطبته.

تجمدت الدماء في عروقها. كم كانت مخطئة ساعة اعتقدت ان هذه المسألة طويت الى الأبد. قالت كريستينا محاولة كبت غيظها:

- ولكنك يا سيدة افسحت لي المجال للتفكير، ودرس الموضوع...

نظرت اليها السيدة براندون برقة:

- لا بد انك توصلت الى قرار الآن. ان ثيو شاب حساس وعنيد. لن ينتظر طويلاً للحصول على جواب منك.

ردت كريستينا باصرار:

- لا اريده ان ينتظر. لا يمكنني الزواج منه يا سيدة براندون. انا لا احبه.

تشبثت العجوز برأيها:

- ان الحب ينمو مع مرور الزمن يا عزيزتي. وهذا هو معنى الخطبة في المقام الأول. انها فترة التعارف المتبادل، وتمتين اواصر الصداقة لكي تصبح حباً بكل معنى الكلمة. ان ثيو لن يصبر كثيراً، وسيجد وسائله الخاصة لتلقينك بعض الدروس.

كانت كريستينا تتأجج غضباً:

- هل انت جادة؟ ما معنى كلامك هذا؟

انهالت عليها السيدة براندون مؤنبة:

- لا تدعي السذاجة يا ابنتي. انت تعرفين تماماً ما الذي اعنيه. ان وجودكما معاً تحت سقف واحد سيؤدي حتماً الى نشوء علاقة بينكما. وعندما تعلنين خطوبتك ستلمسين بنفسك مدى التغيير الذي سيطرأ على عواطفك.

كادت كريستينا تفقد صوابها:

- انك تثيرين في نفسي الاشمئزاز يا سيدة براندون. أؤكد لك ان مشاريعك مصيرها الفشل الذريع.

هزت العجوز بكتفيها متأففة:

- المعذرة. لم اقصد جرح مشاعرك. انا آسفة. كنت اطرح

عليك مجرد حل عملي.

اوصدت كريستينا الباب وراءها باحكام. ووقفت لحظة لالتقاط انفاسها. كانت صدمة عنيفة هزتها هزاً. وحيرها امر عمتها غريس وصداقتها مع هذه العجوز البليدة الاحساس.

توجهت الى المكتبة، وباشرت بطباعة مظاريف البطاقات. كانت في حالة يرثى لها، فوجدت نفسها تخلط الاسماء ببعضها. سحبت الورقة من الآلة الكاتبة، طوتها كالكرة ثم قذفتها صوب النافذة المشرعة.

ولفورها سمعت صوتاً اليفاً يهتف وراءها:

- طلقة موفقة ابتها السكرتيرة البارعة. يبدو ان مهارتك بدأت تخونك.

احتفظت برباطة الجأش، مقاومة دوافعها المشبوبة للنظر اليه، ورؤية وجهه.

مشى ديفلين بخطى وئيدة ووقف بجانبها، يحملق في اللائحة الملقاة قرب الآلة الكاتبة. اعلن بسخرية:

- ارى ان عمتي قررت الخروج من عزلتها واقامة حفلة اجتماعية. لا تتعبي نفسك في طباعة دعوة الى آنسة بينيت، سآخذ البطاقة معي.

لفت ظرفاً جديداً على الآلة، قائلة بجفاف:

- لا اعتقد انك مدعو الى الحفلة.

استقبل كلماتها ببرودة:

- اذن سأقتحم المكان اقتحاماً. هذه حفلة لن ادعها تفوتني

مهما كلف الأمر. اريد ان اكون حاضراً عندما يقلدك ثيو خاتم الخطبة. وبالمناسبة هل رأيت الخاتم؟ انه خاتم هائل من الزمرد والالماس، يا للذوق السوقي المبتذل!

واظبت على الطباعة، واجابته بحدة:

- اقول لك للمرة الألف، لن اعقد خطبتي على ثيو.

ارتمى فوق مقعد وثير، ماداً رجليه امامه:

- كلا؟ ان الجزيرة كلها تلغط بالموضوع.

سألته مندهشة:

- ما الذي يقوله الناس؟

قال بنبرة جادة لا اثر للسخرية فيها:

- الكل يقول انك على وشك الزواج من ثيو. وستكون هذه الحفلة مسك الختام.

اجابت يائسة:

- ولكن هذه الأقوال مجرد اكاذيب.

سمر عينيه على وجهها المتجهم:

- ربما. ومع ذلك، ما زال امام عمتي متسع من الوقت لاقناعك. لن يحل عيد ميلاد ثيو قبل اسبوع، فلا تيأسي. ولا اظنك تنكرين نية عمتي في عقد قرانكما.

قالت مطرقة الرأس:

- لا. لا انكر، ولكنني لم اكن اعرف شيئاً عندما اتيت الى هنا. يجب ان تصدقني.

اشعل سيكارة، ثم عقب:

- انا اصدقك. هذه مسألة بسيطة. ولكن ما الذي تنوين فعله؟

- ما الذي انوي فعله؟

كاد ينفذ صبره:

- نعم. ان هذه المسألة تعنيني مباشرة، كما تعلمين.

تنبهت الى مغزى كلامه:

- طبعاً لأنه اذا تزوجني ثيو ورزق ولداً سيبطل اي حق لك في الارث.

خيم صمت ثقيل، ثم اطلق قهقهة ممزوجة بالمرارة:

- يا للذكاء الباهر! نعم ان مصلحتي ان يظل ثيو عازباً. هل يمكنني الاعتماد عليك لتحقيق هذه الغاية النبيلة؟

احست بوخز حاد في حنجرتها:

- قلت لك، وبكل وضوح، انني لا انوي الزواج من ثيو. لا مبرر للتخوف على مشاريعك مني.

رد بلهجة جافة:

- اشكرك من اعماق قلبي. وكيف تنوين الفرار من مصير رسمته لك عمتي العزيزة؟

هزت بكتفيها:

- لا تقلق علي. استطيع تدبر امري.

اجاب بعذوبة:

- ولكني اقلق عليك. خاصة اذا كنت ستحتاجين الى مساعدتي.

اضطربت قليلاً:

- لا لن احتاج اليك.

نهض واقفاً، وتقدم منها بحذر، ثم مد يده الى جيبه:

- اعتقد ان هذا المنديل الذي يطرزه اول حرف من اسمك لم يكن في كوخي صدفة.

هتفت:

- كيف وجدته؟

- لا مجال الى المراوغة يا كريستينا. انت اتيت الى الكوخ تبحثين عني عندما كنت في المارتينيك.

صمتت قليلاً، ثم قالت متمتمة:

- اشكرك على عرضك لمساعدتي. ولكن زيارتي الى الكوخ لا علاقة لها بذلك. كانت مجرد فضول، وترويح عن النفس لتبديد السأم والضجر.

حدق فيها بعينين تتماوجان سخرية واعتداداً بالنفس. ثم مر بأصابعه فوق شعرها، مداعباً ضفائره بخفة وهدوء. خالت كريستينا انه ذلك الهدوء الذي يسبق هبوب العاصفة. تراجعت الى الوراء:

- والآن دعني وشأني. اريد الانتهاء من طباعة هذه اللائحة الطويلة.

غمغم:

- كلا يا عزيزتي. انت ارتكبت خطأ كبيراً عندما زرت كوخي بهذا الاسلوب، واطلعت على قطعي وعملي الفني بدون

اذن مني. ولا بد لك من دفع ثمن غال.

ولم يترك امامها مجالاً للاجابة. طوقها بذراعيه وشدها نحوه يكاد يهصرها هصراً. حاولت دفعه عنها فخانتها قواها.

انقضت لحظة قصيرة خالتها دهراً. كانت تخوض معركة خاسرة، متأرجحة بين عقلها وقلبها. واذعنت لعواطفها الجياشة تعيش برهة قصيرة بين ذراعيه، وتكتشف عواطفها الجياشة، وتلمس مدى سيطرته على احاسيسها...

وسرعان ما استعادت جرأتها السابقة، وعقدت العزم على مقاومة اي اغراء الى ان تنجلي حقيقة الأمور، وتتضح نواياه ازاءها. ظلت تقاوم بذراعيها ويديها ورجليها الى ان اجبرته على فك عقالها.

صاحت في وجهه:

- اخرج من هنا ودعني اكمل عملي.

رد، وامارات الظفر تكلل محياه:

- سأخرج الآن لرؤية عمتي. ولا تحسبي لن اتخلى عنك.

٧ - من يسبق العاصفة

نظرت كريستينا بارتياح الى الآلة الكاتبة. لقد انجزت كل ما عليها، وطبعت اللائحة بأكملها، وراجعتها اكثر من مرة. انه انجاز عظيم، خاطبت نفسها، وهي تمزقها تيارات عاطفية هائلة.

حملت مظاريف الرسائل واللائحة لتتوجه الى الطبقة العليا من المنزل وتسليمها الى السيدة براندون. ثم ترددت قليلاً. لن تصعد الآن، فتواجه ديفلين وعمته سوية. لا ليس الآن، وهي لا تزال تتحرق شوقاً الى حب حقيقي لا يفقه عنه شيئاً.

وكان عزاؤها الوحيد جهل ديفلين التام لحقيقة مشاعرها تجاهه. وهكذا تستطيع ان تغادر سانت فيكتوار بدون ان تتورط

معه في قصة حب فاشلة. و مامها الآن فرصة ذهبية للرحيل محتفظة ببعض كرامتها وكبريائها.

نهضت متوجهة نحو الدفة. كانت تشعر بالحر الخانق والعرق يتصبب منها فتزداد ثيابها التصاقاً بجلدها. غمرها توق جارف لمداعبة مياه حوض السباحة.

ركضت مسرعة نحو غرفتها، وارتدت ملابس السباحة، واختطفت منشفة كبيرة، ثم هبطت السلم المؤدي الى الحوض.

كانت المياه رائعة كما توقعتها. سبحت متوانية من طرف الى اخر، ثم استلقت طافية على ظهرها. استعادت نشاطها وحيويتها، فقررت الاسترخاء قليلاً على حافة الحوض لتجفيف شعرها، والتمتع بأشعة الشمس. كان الهدوء يخيم على المكان، ما عدا همهمة بعض الحشرات. غلبها النعاس، فأغمضت عينيها، واستسلمت الى نوم عميق.

ايقظتها بعد فترة قصيرة قطرات ماء تتساقط فوق وجهها. فتحت عينيها، فرأت ثيو يقف امامها يرش فوقها رذاذاً من مياه الحوض. غطت جسمها بالمنشفة، وحدجته متعجبة. كان يرتدي ملابس السباحة، وكأنه يدعوها الى استئناف علاقة طبيعية بينهما.

قالت متلعثمة:

- شكراً على ايقاظي. عي العودة. لا شك ان جدتك تنتظرني.

قطب جبينه:

- ان جدتي لا تحتاج الى احد اليوم. جلست مع ديفلين طوال الصباح. واعرف ان مزاجها يصبح لا يطاق بعد كل جلسة من هذا النوع. والارجح انها لن تغادر غرفتها. فنستغل الفرصة وننعم بالسباحة سوية.

ردت:

- مع ذلك، علي الذهاب الآن...

ولم يدعها تكمل كلماتها. مد يده وشدها من قدمها. وقال:

- لا تتركيني يا كريستينا. لا يمكنك ان تحقدي علي الى الابد بسبب حادث طارىء.

اكدت له:

- لم اعد افكر في الأمر.

ابتسم قليلاً:

- اذن امكثي بعض الوقت. ان حوض السباحة لا معنى له بدون وجود فتاة جميلة. وانا مولع بك كما تعرفين.

قالت مهتاجة:

- اذا امعنت في كلام كهذا، سامضي لتوي الى الداخل.

تنهد مستاء، ثم ارخى قبضته عن قدمها. وقال متنوعا:

- اف لديفلين. ما الذي اتى به اليوم؟ جاء ليلهي عمتي ويعكر مزاجها، وكنت احضر نفسي للذهاب معها بعد الظهر لمشاهدة زورقي الجديد.

سألته كريستينا ببعض الدهشة:

- زورق؟ اي زورق؟

قال:

- انه هدية عيد ميلادي. وهو زورق رائع، اكثر جمالاً من مركب ديفلين. ويرسو الآن في سانت فيكتوار، ينتظر عمتي لتوقيع عقد الشراء. اما الآن فقد ترفض بعد اجتماعها بذلك اللعين.

عنفت كريستينا بجفاف:

- استبعد ذلك يا ثيو. ان عمتك لا ترفض لك طلباً.

نظر اليها بتمعن:

- نعم، هذا صحيح باستثناء امر واحد احتاج اليه اكثر من اي شيء اخر. لماذا لا تأتين معنا لرؤية الزورق؟ انه ملائم جداً لقضاء شهر العسل.

قالت بنبرة حادة:

- لا اعتقد انها فكرة صائبة.

نهضت على قدميها فارتبك متوسلاً:

- لم اقصد ازعاجك. المعذرة. ارجوك الا تغادري. واعدك بتحسين سلوكي اذا قبلت الاجابة على سؤال واحد.

قالت بتأفف:

- وما هو هذا السؤال؟

سألها بصوت خفيض:

- لماذا ترفضين الزواج مني؟

ادركت مدى كآبته، وعمق مأساته، فحاولت ان تهدىء من روعه:

- لاننا لا نستطيع التحكم بمشاعرنا يا ثيو. لا اعرف كيف اشرح لك، ولكن...

قاطعها برفق:

- انت ترفضين، وهذا كل شيء. كوني صريحة معي. لا تخافي استطيع تلقي الصدمة.

استطردت:

- ان المسألة ليست في هذه البساطة. انا لا اريد اي شخص...

انفرجت اساريره:

- لا ينطبق هذا تماماً على ما رايته عبر نافذة المكتبة صباح اليوم.

تجمدت في مكانها، والغضب يتأجج في داخلها. تنهد ثيو بتكلف:

- آه يا كريستينا كم يؤلمني ان ارى ديفلين يستغلك بهذا الاسلوب الدنيء. ولكن لا تخرجي، لن ابوح بشيء امام جدتي. وانا لست مترمتاً كثيراً. وعندما تتزوج ستكتشفين ذلك بنفسك.

جن جنونها:

- ما هذا الهراء يا ثيو؟

ابتسم بوداعة، وانتصب واقفاً:

- هيا بنا لنسبح معاً.

ظل يلح عليها الى ان اذعنت للأمر الواقع. وغطسا في الماء،

واخذا يتسابقان لبلوغ الطرف الآخر. فطنت الى ان ثيو يتعمد التلكؤ، ليتيح امامها فرصة تجاوزه. انتظرته قليلاً، فلحقها صائحاً:

- احسنت. احسنت.

قالت محتجة:

- انت تعمدت التأخر.

دفعها برشاقة:

- لا ابداً. اقسم لك.

واخذا يتراشقان بالمياه. اغمضت عينيها لاتقاء هجماته المتواصلة. ثم فتحتها بحذر، فلم تجد له اثراً. صاحت:

- ثيو؟ اين انت؟

لم يجبها احد. القت نظرة على حافة الحوض، حيث كانا يجلسان، فلم تجده. ثم احست بقوة هائلة تشدها من قدميها الى قاع المياه. فغرت فمها مشدوهة فابتلعت بعض الماء. افلتت من القبضة الملتفة حول قدميها، واندفعت نحو سطح الحوض. قالت صارخة:

- يا لك من صبي احمق يا ثيو...

وشدها مرة ثانية الى الاسفل. حبست انفاسها توجساً. ثم اخذت تركل بعنف، وتتلوى للافلات منه.

استمرت في عراكها خائرة القوى، تشعر بألم حاد في رئتيها. ضاعفت جهدها للافلات منه. وادركت فجأة ان ما بدأ كلعبة مسلية تحول الى حلبة قتال ليثبت ثيو تفوقه عليها، وليس من

الناحية الجسدية، فهو اقوى منها حتماً. كان يبارزها ليؤكد لها انه السيد المطلق.

اصابها رعب شديد ممزوج بغضب هائل، حاقد. حاولت السيطرة على اعصابها، معللة نفسها بعدم قدرة ثيو على البقاء تحت الماء طويلاً. سيضطر للتوقف والتنفس بعد قليل، فتصبر وتتحمل ما دام ذلك ممكناً.

ولكنها لم تعد تملك قوة على الصبر، وهو يمعن في جذبها نحو القاع، فتضيق انفاسها، ويضج رأسها الماً، وتخال انها تكاد تنفجر كالقنبلة. وكانت قبضته تمسك بها بقوة حديدية، لا تستطيع الافلات منها مهما تلوت، تمعجت، وركلت.

يا له من وغد مجرم، فكرت كريستينا ملتاعة. انه لا يسمح لأحد بعصيان اوامره. وهو الآن يعاقبها بكل دناءة لانها رفضته. عصت اوامره، ولم تركع ساجدة امامه كما يتوقع من الجميع.

اخذ يشدها بكل قواه، ويطوقها بوحشية هائلة، فأطلقت صرخة ألم حاد. وتدفقت المياه في فمها كتيار جارف. غمرتها ظلمة قاتمة، واخمدت انفاسها.

كانت تتقيأ كل ما في امعائها، وهي تحس بقبضة متينة تضغط على ظهرها، وتدفع الماء من فمها. فتحت عينيها متأوهة. كانت مستلقية على حافة الحوض، ورئتاها تقذفان الماء خارجاً. حاولت اكتشاف هوية صاحب اليدين اللتين تضغطان عليها. سمعت ديفلين يقول بصوت هادىء:

ـ لا تتحركي. ستكونين بخير قريباً.

ثم تكلم ثيو:

ـ كريستينا. كريستينا (ثم ارتمى امامها) اعذريني. لم اقصد ايذاءك. كانت مجرد لعبة.

كان صوته يقطر ندامة. ولكنها لمست في نبرته مسحة من الابتهاج بالنجاح ايضاً. وادركت كريستينا انه يحاول تلقينها درساً لن تنساه. اغمضت عينيها لتحجب مرآه عنها.

انحنى ديفلين يساعدها على النهوض. ثم حملها بين ذراعيه. شعرت باطمئنان غريب، وهو يمضي بها الى غرفتها. واستلقت على سريرها، كأنها في حلم من تلك الاحلام التي تختلط فيها لحظات اليأس والذعر، بقبس الأمل والرجاء.

جلس ديفلين على حافة السرير، وحدجها بنظرة معاتبة:

ـ هل تسبحين دائماً بهذا الاسلوب المحموم؟ لو لم اصل في اللحظة الحاسمة، لكنت في وضع سيء للغاية.

كان صوت في داخلها يحثها على قول حقيقة ما جرى، والارتماء في احضانه. والتنفيس عن لواعجها ومخاوفها. لكنها ترددت، وهي تدرك نتيجة خطوة كهذه. غمغمت باعياء:

ـ كنا نلعب في الماء. ثم تطورت الأمور. انها غلطتي منذ البداية.

قال بعذوبة:

ـ لا شك في ذلك. ربما يكون من الافضل الاحتراز قليلاً عندما تمارسين العاباً كهذه، او على الاقل التريث في اختيار من

تلعبين معه.

اطرقت برأسها:

ـ ربما كنت على حق. يبدو ان علي ان اشكرك ثانية.

صمت قليلاً، ثم نهض واقفاً وهو يقول:

ـ سيجلبون لك الشاي في اية لحظة الآن. ارجوك ان تعتني بنفسك، والاصغاء الى نصائحي.

هزت برأسها، يهدها التعب. غمرتها رغبة جامحة لتغرق في نوبة من البكاء والنحيب، ولكنها لن تسمح لنفسها بالظهور بمظهر الضعف امام ديفلين. يجب عليها، ومهما كانت الظروف، الاحتفاظ ببعض كرامتها واحترامها. لم تنظر اليه ثانية. وسمعت وقع خطواته يهبط سلم الحديقة. ثم اضمحل الصوت نهائياً، فتدحرجت على خديها دموع كالجمر الحارق.

مسحت دموعها، متأهبة لاستقبال السيدة كريستوف التي ستحمل اليها ابريق الشاي في اي وقت، رآها تدخل بصحبة السيدة براندون التي هتفت فور دخولها:

ـ كريستينا! ما الذي جرى؟

حدقت فيها كريستينا ملياً وهي تتناول فنجان الشاي. واحست بقشعريرة باردة تنفذ الى عظامها رغم جو الغرفة الدافىء. اقتربت السيدة براندون من السرير بعد ان اشارت على السيدة كريستوف بالخروج. قالت العجوز بشفتين مرتجفتين:

ـ يا له من حادث مؤسف! كدت تغرقين في الحوض لولا ان

اسرع ثيو لانقاذك.

انحنت كريستينا الى الأمام:

- اهذا ما قاله لك؟ لولا وجود ثيو هناك لما كنت في حاجة الى الانقاذ يا سيدة.

تأوهت العجوز منكمشة في كرسيها. اخرجت منديلاً ومسحت به جبينها:

- اعرف انك منهوكة القوى يا عزيزتي. ولا تدركين معنى كلامك. خذي قسطك من الراحة الآن، وسنتحدث في وقت لاحق.

ردت كريستينا بأسى:

- انا ادرك تماماً معنى كلماتي. ناقشت موضوع الزواج مع ثيو، ولم تعجبه آرائي. ولذلك قرر ان يعاقبني. هذه هي الحقيقة المرة.

حاولت السيدة براندون تلطيفها:

- يجب ان تراعي شعور شاب مثل ثيو، وتتفهمي مدى خيبة امله.

ردت كريستينا بمرارة:

- آسفة لجهلي. لم تخطر في بالي مسألة بديهية كهذه. ولكنك تعلمين انه يستحيل علي البقاء هنا بعدما جرى. اود ان ارحل بأسرع ما يمكن...

تأوهت العجوز:

- لا. لا.

ولاحظت كريستينا بارتياع اضطراب السيدة براندون، اذ كانت تتنفس بصعوبة واجهاد وتضغط بيدها على صدرها.

قفزت كريستينا من سريرها صائحة:

- سيدة براندون، هل انت بخير؟

وسمعتها تتمتم:

- اقراص الدواء ... محفظة يدي...

فتحت كريستينا المحفظة وناولتها علبة الدواء. ابتلعت قرصاً، ثم لم تلبث ان هدأ روعها، واستعادت بعض حيويتها، قالت تخاطب كريستينا بلهجة قاسية:

- هل تدركين الآن كم انا عاجزة؟ مع ذلك لم اتعرض لنوبة كهذه منذ مجيئك. انني اعول عليك كثيراً يا ابنتي.

قالت كريستينا باحتجاج:

- ولكني لم افعل شيئاً.

مدت السيدة براندون يداً مرتعشة:

- ولكنك ادخلت الأمل الى قلبي يا ابنتي. شارفت حياتي على نهايتها، ولا اتمنى اي شيء سوى رؤيتك تعيشين مع ثيو في بيت واحد. انت وحدك قادرة على اسعاد ثيو واسعادي.

جحظت عينا كريستينا:

- استمعي الي جيداً يا سيدة براندون. لن اتزوج ثيو، الآن او في اي وقت اخر. وانوي الرحيل عن سانت فيكتوار والاستقرار في انكلترا، سواء قبلت ام رفضت.

اغمضت العجوز عينيها:

ـ نعم. ربما كان ذلك افضل حل. سأحجز لك مقعداً على الطائرة من المارتينيك. ولكن ليس الآن. ارجوك يا كريستينا ان تكرمي علي وتساعديني في الاعداد لعيد ميلاد ثيو الاسبوع المقبل. وبعد ذلك لك مطلق الحرية، وسأقدم كل مساعدة ممكنة.

جلست كريستينا على سريرها، تتجاذبها آراء متضاربة. اقنعت نفسها ان بقاءها بضعة ايام اخرى لن يغير شيئاً طالما ان السيدة براندون رضخت للأمر الواقع كما يبدو. قالت متنهدة:

ـ حسناً. سأبقى. ثم أرحل فور انتهاء الحفلة.

راحت تتقلب متململة في فراشها تلك الليلة، حائرة، غاضبة، تتقاذفها اصابع القدر الخفية، وصورة مستقبلها الغامض. لماذا قررت البقاء؟ هل لانها اشفقت على السيدة براندون وارادت الحفاظ على ذكرى صداقتها القديمة مع عمتها غريس؟

دفنت رأسها في الوسادة. هتف صوت داخلي يهزأ منها. ان عدم رحيلها مباشرة يتعلق به هو. انه السبب الرئيسي وراء بقائها، واملها في سماع كلمة واحدة تغير مجرى حياتها. ومهما كان تعلقها به، وحبها له، فكرت يائسة، ما الفائدة من هذا الانتظار؟ آن لها الاقتناع بطبعه واستهتاره. استغل بولالي، وهو يريد استغلالها لا اكثر. هذا هو الواقع الاليم، ولكن عليها مواجهته كما هو. ان ديفلين رجل شرير عليها الابتعاد عنه.

كانت لا تزال كئيبة ومتعبة عندما استقبلت انوار الصباح. ارتدت ملابسها بسرعة، وتوجهت لتوها الى جناح السيدة براندون. اعترضت بولالي طريقها قائلة:

ـ ان السيدة براندون لا تزال مرهقة. وقد استدعينا الطبيب لمعالجتها. ولا ترغب في رؤية احد.

عادت كريستينا ادراجها. كانت تلقت تعليمات واضحة بالاعداد لحفلة ثيو. عمدت الى ارسال كل بطاقات الدعوة، ثم توجهت للتداول مع السيدة كريستوف، وجدتها متجهمة الوجه، تبدي تأففها من الحفلة وهموم استقبال الناس والاهتمام بهم. فقررت ان تتحدث الى الطاهية مباشرة.

كانت كريستينا في حالة يرثى لها، عندما سمعت هدير سيارة خارج المنزل. ولمحت السيدة كريستوف تفتح الباب لزائر اتى للاطمئنان على صحة السيدة براندون. لكن اصابتها الدهشة وهي ترى لورنا ميلارد تدخل الى غرفة المكتبة فلحقت بها. وتهللت اساريرها:

ـ لورنا! يا للمفاجأة السارة. ماذا تفعلين هنا؟

ردت لورنا تتكلف ابتسامة باهتة:

ـ استدعتني السيدة براندون هذا الصباح. ويبدو ان علي مساعدتك في شؤون الحفلة، خاصة وانك ستصبحين سيدة المنزل عما قريب.

حملقت كريستينا مندهشة:

ـ ماذا تقولين؟ هل اصبحت حديث الجزيرة؟

اجابت لورنا بعفوية :

ـ انك على كل شفة ولسان . ولم تعد القضية سراً . أليست الحفلة من اجل اعلان الخطبة؟

قالت كريستينا ببطء :

ـ لا . ان الحفلة من اجل عيد ميلاد ثيو لا اكثر ولا اقل .

نظرت اليها لورنا بارتياب :

ـ كنا نتوقع زواجك من ثيو منذ ان وطئت قدماك ارض سانت فيكتوار .

قالت كريستينا مستاءة :

ـ يا لخيبة الأمل . اطمئنك يا لورنا انني سأقفل عائدة الى انكلترا الاسبوع المقبل . ولن يرى وجهي احد من عائلة براندون بعد ذلك .

ارتسمت امارات الغبطة على وجه لورنا :

ـ هل انت جادة؟ يا له من خبر سار! ولا اخفي عنك مدى كراهيتي لهذا الصبي الاناني المدلل . ان زوجي كلايف لا يقل كرهاً لثيو عني، يا له من ولد خسيس ، كلما وقع نظري عليه، اخال انني ارى ابليس اللعين .

نعم، فكرت كريستينا، هذه هي الحقيقة التي فاتتها، حقيقة غطرسته، وحبه للسيطرة والاستبداد، وفظاظته . كانت تظن ان تحذير العراف ينطبق على ديفلين، ولكنها كم كانت مخطئة! الآن تعرف من هو ابليس الحقيقي .

استطردت لورنا :

ـ ولكن كيف ستغادرين هذا المكان؟ ان عائلة براندون لا تتخلى عن غنائمها بسهولة .

ـ وعدتني السيدة براندون امس بمساعدتي على الرحيل فور انتهاء الحفلة .

حدجتها لورنا مستغربة :

ـ يبدو لي انها خدعتك، والا ما معنى طلبها منا اخذ الخاتم الى الصائغ لتنظيفه وتصغير حجمه، وطلبت منا الاستعجال .

علقت كريستينا :

ـ هكذا اذن . كانت السيدة براندون تريد وضعي تحت الأمر الواقع في ليلة الحفلة معتقدة انني لن اجرؤ على رد طلبها امام اصدقائها .

سألتها لورنا برقة :

ـ وهل ترفضين طلبها في وضع كهذا؟

تنهدت كريستينا :

ـ انه موقف حرج . ولذلك علي الفرار بأسرع وقت . متى يبحر المركب من الميناء؟

ـ الساعة الرابعة بعد الظهر . ولكن كيف ستصلين الى هناك؟

تراقصت عينا كريستينا :

ـ سأطلب من لويس نقلي بالسيارة . سأختلق عذراً ملائماً، فأقول له انني اريد مقابلة فرقة موسيقية لاكتشاف امكانية استئجارها ليلة الحفلة .

سألتها لورنا:

ـ وماذا عن امتعتك؟ كيف ستحملينها معك بدون اثارة الشكوك؟

رمت كريستينا يديها متأوهة:

ـ لا بد من العثور على وسيلة ما.

قالت لورنا:

ـ احزمي امتعتك، وضعيها في مكان امين. ثم اخذها معي الى بيتي واحتفظ بها حتى تتدبري امرك فارسلها اليك.

ـ شكراً يا لورنا. لا ادري كيف اعبر لك عن عرفاني بالجميل.

تنهدت لورنا:

ـ والآن لنعد الى الحفلة وتدبير شؤونها.

تناولت كريستينا طعام الغداء بسرعة، ثم تسللت الى غرفتها لحزم امتعتها. وكانت انهت اعداد كل الترتيبات اللازمة للحفلة، ومن كل النواحي. ظل شبح ديفلين براندون يطاردها، ويلقي بينها وبين مستقبلها ستاراً غامضاً مليئاً بالتساؤلات. عقدت العزم على نسيانه، واعتبار شعورها المتأجج نحوه مجرد نزوة عابرة لن تلبث ان تتغلب عليها. وعلاوة على ذلك، تابعت افكارها، لم يبدر منه ما يشجعها، ويمنحها بعض الأمل لتوقع تطور ايجابي حقيقي في موقفه.

القت نظرة اخيرة حزينة حولها، ثم حملت حقائبها عبر السلم الخلفي، ومضت الى طرف الحديقة، واخفت الحقائب

تحت شجيرة مورقة بانتظار مجيء لورنا لنقلها في الوقت الملائم.

ثم اقفلت عائدة الى غرفتها، وهبطت الى الدور الأرضي حيث كانت لورنا تتوقعها بلهفة مع السيدة كريستوف. وقالت لورنا بهدوء:

ـ ان لويس ينتظرك في السيارة، لقد اخبرته عن ضرورة ذهابك الى المدينة لمقابلة فرقة موسيقية.

شكرتها كريستينا بابتسامة ذات معنى، وسارت نحو الباب الأمامي، فرأت لويس يتمشى امام السيارة مترقباً قدومها. وهرول يفتح لها الباب بكل لباقة واحترام.

انطلقت بها السيارة تترنح صعوداً وهبوطاً فوق الطريق التي الفتها. وبقي لويس صامتاً، يصفر الحاناً ناعمة. نظرت كريستينا من النافذة الى الحقول، غارقة في تفكير عميق. كان عليها ان تدبر مكاناً ما للسكن. وفضلت ان يكون هذا المكان غرفة في فندق، حيث تعرض على صاحبه بعض الخدمات مثل الغسل او الكنس او اي شيء آخر مقابل سكنها مجاناً. وما ان تستقر حتى تعمد الى كتابة رسالة مفصلة تشرح فيها مشكلتها للسيد فريث.

ولاحظت فجأة ان السيارة تزداد ترنحاً وتأرجحاً. ورأت لويس ينحرف الى جانب الطريق، ويتوقف. خرج من السيارة، والقى نظرة على العجلات، وصاح:

ـ لا بد من تغيير العجلة الأمامية. يبدو انها مثقوبة.

ولم تعد تذكر كم استغرق تغيير العجلة النحسة. لكنها

انتظرت مدة طويلة، ونفد صبرها، ولويس كان لا يزال منكباً على العجلة يفكها بجهد النفس، ولا يجد سبيلاً الى وضع عجلة اخرى مكانها.

واخيراً نجح لويس في انجاز عمله، فداخلتها بعض الاطمئنان، وانطلقت بهما السيارة نحو الميناء.

ترجلت كريستينا من السيارة، واشارت على لويس بعدم انتظارها، فرفع قبعته قائلاً:

ـ كما تشائين يا آنسة.

وادركت كريستينا ان لويس هو الآخر سمع باقتراب زواجها من ثيو، واخذ يظهر لها احتراماً يليق بربة عمله في المستقبل.

اسرعت الخطى عبر الشوارع المزدحمة التي عرفتها جيداً اثناء وصولها من المارتينيك. تفقدت ساعة يدها لتتأكد من عدم تأخرها عن موعد ابحار المركب. وما هي الا لحظات حتى رأت الميناء امامها، والمركب يرسو قرب رصيفه. وكان الناس يتجمعون حوله، فاعتقدت انهم يستعدون للسفر والابحار.

ومر امامها احد راكبي الدراجات فتقدمت منه مستفسرة عن حقيقة ما يجري، ومعنى تجمع الناس بهذه الكثرة. اجابها بعجب:

ـ الم تلاحظي تلبد الغيوم في الفضاء. ان العاصفة على وشك الهبوب، ولن يبحر المركب نتيجة لذلك بانتظار تحسن الجو يوم غد. انه الاعصار الرهيب يا آنسة.

تراجعت كريستينا تجر اذيال الخيبة والفشل. اين تذهب

الآن؟ لا يمكنها العودة الى ارك اينجل، وليس من السهل العثور على مكان تأوي اليه حتى موعد الابحار الثاني.

كانت تسير ببطء فوق الرصيف، تضرب اخماساً بأسداس، عندما احست بقبضة عنيفة تطوق يدها. واعلن ثيو براندون مبتهجاً:

ـ يا للصدفة العجيبة! ماذا تفعلين هنا يا عزيزتي؟

٨ - ابتسامة خلف الغيم

ارتمت كريستينا فوق مقعد سيارة ثيو، تجيل النظر في الطبيعة بمشاهدها المتدافعة كشريط سينمائي. كانت في طريق العودة الى ارك اينجل.

بدا ثيو مختالاً، معتداً بنفسه، كأنه حقق انتصاراً باهراً. ولم تحاول اللجوء الى حجة الاتصال بالفرقة الموسيقية لتبرير وجودها قرب الميناء. فاكتفت بكلمات غامضة، مركزة انتباهها على تلبد الغيوم السوداء، ووميض البرق فوق الافق.

وبعد فترة من الوقت، تمتم ثيو:

ـ لا اجد تفسيراً لهذا التصرف يا كريستينا. كيف تسمحين لنفسك بالرحيل على هذا النحو قبل اعلان خطبتي بأيام. ان

الحب بالنسبة الي مسألة ثانوية، لا تشغلي نفسك بها. ان الزواج هو الذي يحل كل مشكلة. ولا اخفي عنك ان زواجي منك ليس مجرد شغف صبياني بجمالك وانوثتك.

صاحت كريستينا:

ـ كفى! يبدو انك فقدت عقلك.

نظر اليها ثيو بتمعن:

ـ لا يا كريستينا. انك لا تفهمين معنى كلامي. ان زواجي منك يعني انني سأرزق بحصتي برثي بعد وفاتي. وهكذا احول بين ديفلين وسيطرته على ارك اينجل. وانت افضل فتاة للقيام بهذه المهمة النبيلة. خاصة وان جدتي خططت كل ذلك فور وفاة عمتك.

اخذت كريستينا تتلمس باب السيارة، محاولة فتحه. وجدت انه اوصده باحكام، وبجهاز خاص يصعب حل لغزه. ارادت ان تقفز خارج السيارة عندما يبطىء ثيو السرعة وهو يقترب من منعطف في الطريق. فشلت خطتها، فحدقت فيه بمرارة:

ـ يا لك من انسان قليل الحياء. ان عمتي غريس لم تتفق مع عمتك على اي شيء من هذا النوع.

رد ثيو بهدوء:

ـ هذا صحيح. كل ما في الأمر ان عمتك كتبت رسالة الى العمة مادلين، اخت جدتي، وذلك عندما كنت تعيشين معها، واخبرتها عن مدى سعادتها بك، وتم الاتفاق على عقد قرانك لتكوني زوجة ديفلين يا عزيزتي. عثرت جدتي على الرسالة بين

اوراق عمتي مادلين بعد مأتمها، فاخفتها. والعمة مادلين هي التي كانت صديقة عمتك غريس وليس جدتي.

اغمضت كريستينا عينيها، تشعر بدوار عاصف. حبست الدموع المترقرقة في عينيها وهي تفكر في مصيرها المشؤوم. انها تحب الرجل الذي اختارته لها عمتها، وهي الآن لا تجد اليه سبيلاً.

استطرد ثيو:

ـ تتلقى عمتي جريدتها المفضلة من انكلترا، تماماً كما كان يفعل جدي. وعندما قرأت عن وفاة عمتك غريس، قامت فوراً بالسفر الى انكلترا بحثاً عنك. ولو اكتشفت انك قبيحة المظهر او غير ملائمة لاسباب اخرى، لما كانت تابعت مساعيها.

هتفت كريستينا ملتاعة:

ـ اتمنى لو كنت اقبح فتاة في الكرة الأرضية.

انفجر ضاحكاً:

ـ ولكنك لست كذلك. كفي اذن عن هذا الهراء.

وفجأة ضاعف ثيو من سرعة السيارة، وانعطف نحو حافة تلك الصخرة الشاهقة التي تذكرها جيداً. ارتعدت فرائصها وجلة، خائفة. نظر اليها ثيو ساخراً:

ـ ما بالك يا عزيزتي؟ اطمئني. هذه المرة سنموت معاً، وتحضننا الامواج في عناق ابدي.

عادت تحاول فتح الباب وهي تتوسل قائلة:

ـ بحق السماء يا ثيو، اوقف هذه السيارة قبل ان يصيب احدنا اي مكروه.

اعاد ثيو السيارة الى وسط الطريق، وظل يتأرجح بها يميناً ويساراً. كان الظلام يزحف بعتمته الداكنة، وازداد تلبد الغيوم المنذرة بعاصفة غضوب. تبينت كريستينا امامها شجرة كبيرة، تمتد اغصانها كأنها رماح تتلظى شوقاً لخوض معركة دموية. وتذكرت لتوها تمثال ارك اينجل برمحه المسنون.

امعنت في البحث عن وسيلة لفتح الباب، وفجأة انفتح بقوة، فأمسكت به تأهباً للحظة ملائمة. وكان ثيو يقهقه كالمجنون، وهو يقود السيارة في اتجاه الشجرة الكبيرة. ادركت انه يمارس لعبة قذرة، ولن يجرؤ على تنفيذ اي شيء، وسيتجنب الاصطدام مباشرة، وينحرف عن الشجرة.

مدت يدها، وقبضت على المقود، مصوبة السيارة نحو جذع الشجرة مباشرة. اخذ ثيو يلعنها ويحاول الضغط على دواسة السيارة لايقافها. قفزت بسرعة من الباب، فتهاوت فوق الحشائش بجانب الطريق.

ظلت مستلقية على ظهرها برهة قصيرة تعاني من بعض الألم. ثم نهضت قليلاً، وببطء شديد، تتحرى مصير ثيو وسيارته. رأت السيارة مصطدمة بجذع الشجرة، وقد تحطم جزء من غطاء المحرك. لم تبدر اية حركة من داخل السيارة، فمشت متثاقلة نحوها.

كان ثيو منبطحاً فوق المقود. واعتقدت للوهلة الأولى انه

برقد ميتاً، الى ان جست نبضه فتنهدت الصعداء لبقائه حياً. خطت الى الوراء وهو يئن متأوهاً، وقررت ان تبتعد عنه بأقصى سرعة، وقبل ان يستعيد كامل وعيه.

اطلقت ساقيها للريح، هائمة على وجهها. كانت تركض بكل قوتها، وبدون ان تعرف في اي اتجاه تحملها قدماها.

مرت دقائق معدودة وهي تمضي راكضة ومهرولة، ثم تلألأت وراءها انوار السيارة، فانتابها ذعر شديد، وهي تفكر بوقوعها ثانية فريسة سهلة بين ايدي ثيو اللعين. ارتطمت بحاجز خشبي، فقفزت فوقه بحذر. ورأت البحر يمتد تحتها، مزبداً مرغياً. وسمعت هدير محرك السيارة يقترب منها، فانزلقت فوق صخرة ناتئة ببطء، واختبأت وراءها. وتابع ثيو طريقه متجهاً الى ارك اينجل، لا يلوي على شيء.

رفعت رأسها قليلاً، تجيل النظر حولها. رأت في البعيد نوراً خافتاً، فداخلها الشك والأمل في آن معاً. وكانت العاصفة على وشك الهبوب.

هبطت الى الشاطىء، وراحت تسير بخطى ثابتة في اتجاه ذلك الضوء، ولاح امامها كوخ ديفلين يربض جيلاً، آمناً وادعاً.

كان التعب يهدها هداً عندما وقفت امام باب الكوخ، وانهالت عليه بقبضتها. قرعت الباب اكثر من مرة، فلم تسمع اي جواب.

وقفت صامتة يمزقها الألم كالطير المذبوح. همت ان تعود ادراجها، عندما انفتح الباب على مصراعيه. تفرس في وجهها مدهوشاً، ثم جذبها من يدها الى الداخل، واوصد الباب. صاح غاضباً:

- ما الذي تفعلينه هنا ايتها المجنونة، وفي هذا الطقس؟ ان الاعصار سيهب في اية لحظة. وما الذي جرى لك، يبدو انك مشعثة الشعر، ممزقة الثياب؟

قالت بصوت مرتعش:

- كنت اخوض معركة حياة او موت. وكدت اهوي فوق احدى الصخور.

اجاب مهدئاً من روعها:

- اذهبي الى الحمام واغسلي وجهك ويديك. وخذي قميصاً نظيفاً من خزانتي والتفي به.

ظل يراقبها من بعيد، الى ان نفذت اوامره، وجلست على حافة السرير [illegible] ثوب [illegible] مهبيط، مستقبلها

- والآن ما هي قصتك بالضبط؟

قالت متلعثمة:

- كنت على حق. ان عمتك تريدني ان اتزوج ثيو. واعدت كل شيء لوضعي تحت الأمر الواقع. لذلك قررت ان اهرب الى المارتينيك، لكن المركب لم يبحر بسبب الاعصار. وكان ان عثر علي ثيو واعادني بسيارته.

فهم لتوه ما تعنيه رغم كلماتها المتقطعة المقتضبة.

سألها:

ـ وأين ثيو الآن؟

بلعت ريقها:

ـ اتوقع ان يكون في ارك اينجل الآن. كان يمارس احدى الاعيبه القذرة لاختباري، فأخذ ينحرف بالسيارة يميناً وشمالاً، ويوهمني انه سيصعد فوق المنحدر الصخري. قبضت على المقود، فارتطمت السيارة بجذع الشجرة، فقد ثيو وعيه، لكنه لم يصب بأذى. قفزت واخذت اركض الى ان وصلت الى هنا.

صفق بيديه:

ـ يا لها من تجربة مروعة. الحمدلله على سلامتك.

ردت بخفر:

ـ لست ادري ما الذي وسوس بعقله. قال لي انه يريد الحفاظ على اسم عائلة براندون ولذلك سيتزوجني غصباً عني.

هز ديفلين برأسه:

ـ اطمئني يا كريستينا. ان ثيو لا ينتمي الى عائلة براندون. لا ادري مدى معرفتك بتاريخ العائلة وربما لا تدركين ان عمتي عاقر لا اولاد لها، ولذلك كانت تكره امي. وعندما كبرت ودخلت المدرسة بدأت اشعر بالحرج ازاء تصرفات عائلتي. واخجلني اننا كنا نملك العبيد، فأخذت اتحدث عن ضرورة تغيير اسلوب معيشتنا عندما يصبح ارك اينجل ملكاً لي. وكم كنت مغفلاً. اذ ما ان انتهت اجازتي وعدت الى المدرسة، حتى

بادرت عمتي الى ابراز ثيو. وتدعي انه الابن اليتيم لاحد اقربائها الذين لا نعرف عنهم شيئاً في المارتينيك. واعتقد ان السيدة كريستوف هي الوحيدة التي تعلم حقيقة ثيو، ولكنها تكن الولاء التام لعمتي.

ـ ولكن لا يمكنها ان تجعل من ثيو الوريث. . .

ـ اقنعت زوجها، عمي تشارلز، بتبني ثيو، وكان انذاك ولداً صغيراً. ولم يعلنا انهما والداه بل صورا للناس بأنه حفيدهما. واستطاعا ان يربياه كما يريدان وفق مبادىء عائلة براندون الشهيرة، فيتزوج عندما يبلغ سن الرشد ويمنعني من الحصول على ارك اينجل. ثم توفي عمي تشارلز، ولحق به كل من ابي وامي، فاستأثرت عمتي بكل شيء. وشب ثيو تحت رعايتها. بذلت جهوداً متواصلة لعقد قرانه على فتاة من العائلات التي تعرفها هنا، فجوبهت بالرفض القاطع بسبب غموض اصله. عندئذ صممت على البحث في مكان اخر.

وتمتمت كريستينا:

ـ وعثرت علي. يا الهي، عثرت علي.

واغرورقت عيناها بالدموع، فوضع ديفلين يديه على كتفيها مربتاً:

ـ ولكن خاب ظنها، ولم تنجح في ترويضك، فقرر ثيو كسر عنادك وتحطيم ارادتك بأسلوبه القذر.

ولمع بريق خاطف، ثم دوى قصف الرعد، وانهالت الامطار بغزارة تطرق سطح الكوخ كأنها اقدام جبابرة، احست

كريستينا بقلبها يهبط في داخلها كالعصفور الوجل. احتمت بصدر ديفلين، وهي تشعر ببعض الطمأنينة.

قال بهدوء:

ـ لا تجزعي. ليست هذه هي المرة الأولى التي يتعرض فيها الكوخ للاعصار، وظل صامداً لا يتزحزح. وما ان يطل الفجر حتى تنقشع الغيوم، وتهدأ العاصفة.

حدقت فيه متوترة الاعصاب، ما الذي يعنيه؟ هل يتوقع منها ان تبيت ليلتها هنا؟

قالت بتمهل:

ـ اتمنى ان يخف سقوط المطر بعد قليل. علي الذهاب قريباً...

قاطعها:

ـ لا لن تذهبي قبل ان يهدأ الاعصار تماماً.

اوت الى الفراش بحياء وبعض القلق. ولاحظت ان ديفلين يجمع بعض البطانيات من خزانته، ويمضي الى الغرفة المجاورة.

كانت منهكة خائرة القوى، فلم تلبث ان غلبها النعاس، وغرقت في سبات عميق.

وما هي الا لحظات، حتى انهالت طرقات متوالية على الباب الخارجي، يتخللها عويل الرياح الحاد. خالت انها في حلم مزعج. فتحت عينيها قليلاً، وترامى الى اذنيها صوت ديفلين يتبادل الحديث مع كلايف مينارد.

ثم دخل ديفلين غرفة النوم صائحاً:

ـ استيقظي يا كريستينا وارتدي ملابسك. علينا الذهاب الى ارك اينجل لامر مهم وعاجل.

استفسرت متثائبة:

ـ ما الذي جرى؟ هل الم مكروه بالسيدة براندون؟

قال متأففاً:

ـ لا. لا. انه ثيو.

اسرعت تنضم الى كلايف مينارد في سيارة الجيب، وجلست قرب ديفلين.

كانت المصابيح الكهربائية تضيء المنزل عندما توقف امام السلم. ولمحت كريستينا سيارة ثيو مهشمة تهشيماً رهيباً، وقد ارتطمت باحدى البوابات الحديدية امام المدخل.

صعدوا درجات السلم المؤدية الى المنزل، واطلت السيدة كريستوف مولولة:

ـ سيد ديفلين. سيد ديفلين. الحمدلله على مجيئك. يا لها من فاجعة مؤلمة.

دفعها جانباً:

ـ اين ثيو؟

ـ وضعناه في غرفته. وبذلنا المستحيل لاسعافه.

صاح ديفلين بحدة:

ـ لا بد من اجراء تحقيق. اين عمتي؟ كيف جرى

الحادث؟

تلعثمت السيدة كريستوف، وقالت متأوهة:

- عاد السيد ثيو الى المنزل مضطرباً، غاضباً. سأل عن الآنسة كريستينا، فقلنا له انها لم تعد بعد. جن جنونه. واخذ يشتم ويلعن. ثم هرول الى سيارته، وادار المحرك. ولست ادري ما الذي حدث بعد ذلك. ارتطمت سيارته ببوابة الحديد. هرعنا لمساعدته، ولكن بعد فوات الأوان. كان شاباً رائعاً بكل معنى الكلمة. رحمه الله.

ثم راحت تولول وتنتحب بحزن واسى. استدار ديفلين نحو كريستينا:

- الأفضل لك ان تذهبي مع كلايف الى بيته. ابقي مع زوجته لورنا، وسوف انضم اليك في الصباح. وبالمناسبة، انوي الطلب منك لقبولي زوجاً لك.

تجمدت كريستينا في مكانها مشدوهة. لا تكاد تصدق شيئاً. شدها كلايف من يدها:

- هيا بنا يا كريستينا. ستغتبط لورنا لرؤيتك. قلقت عليك كثيراً، وظنت انك تعرضت لحادث ما.

ظلت تراقب ديفلين الى ان اختفى عن انظارها. ثم تأبطت ذراع كلايف، وعادت ادراجها.

وكانت العاصفة تتلاشى بسرعة وحبست الغيوم هدير امطارها.

صعد ديفلين الى الطبقة العليا، فاعترضت طريقه بولالي تئن

بألم. ضمها اليه يهدىء من روعها. ودخل غرفة عمته، فوجدها في حالة من الانهيار التام. رفعت رأسها عندما اقترب منها، وقالت شاكية:

- انت المسؤول عن كل هذا. انت قتلت ثيو. واياك ان تتفوه بكلمة واحدة. سأغادر هذا المكان بأقرب فرصة ممكنة. وافعل ما شئت بالمنزل والمزرعة. لم يعد يهمني اي شيء بعد وفاة حلم حياتي.

قرر ديفلين ان يتركها وشأنها، وتوجه الى غرفة ثيو. القى عليه نظرة سريعة ثم اوصد الباب، ودخل الى غرفة كريستينا، وغط في نوم عميق.

نهض باكراً في صباح اليوم التالي. وعمد الى الاتصال بالشرطة للمجيء الى المنزل، والتحقيق في الحادث الذي ذهب ضحيته ثيو. ثم تناول فطوره بهدوء في غرفة المكتبة، واسرع الى بيت كلايف لمتابعة بحث مستقبله مع كريستينا.

وجدها تجلس مع لورنا في غرفة الاستقبال. وما ان دخل حتى هرعت كريستينا نحوه بلهفة:

- هل من جديد؟

قال برباطة جأش:

- لا. ستأتي الشرطة بعد قليل، وتنتهي القضية عند هذا الحد، ويعلنون الحادث قضاء وقدراً. اما عمتي فسترحل الى المارتينيك، وربما الى فرنسا. ولكنها لن تبقى في ارك اينجل مهما كانت الأحوال. والآن لنعد الى موضوعنا الأساسي.

نهضت لورنا، واستأذنت بالذهاب الى المطبخ لاعداد بعض المرطبات...

ظلت كريستينا قلقة البال. فقررت ان تواجه ديفلين بحقيقة شكوكها. سألته وهو يجلس بجانبها:

- وماذا عن بولالي؟ هل ستتخلى عنك؟

طافت ابتسامة باهتة على فمه:

- ما الذي تقولينه، ما علاقة بولالي بي؟

خالته يمعن في خداعه المعتاد:

- لقد رأيت بولالي تتسلل عبر الحديقة الى كوخك تحت جناح الظلام. ثم رأيت تمثالها بين مجموعة التماثيل الاخرى. وثمة شيء آخر، سر احتفظت به ولم اطلع احداً عليه. ان بولالي حامل، ولا بد...

تجهم وجهه، وانقبضت اساريره، ورد مقاطعاً:

- يا عزيزتي كريستينا، كم انت بريئة. اولاً، ان بولالي زارتني مرة واحدة، وبعد الحاحها على نحت تمثال لها لكي تهديه الى حبيب قلبها. اما حبيب القلب هذا فهو ثيو، نعم ثيو. كان يقيم علاقة سرية معها، وبدون معرفة عمتي. اما السيدة كريستوف فكانت تعلم كل شيء. وانا بالطبع اطلعت على القصة بكاملها من بولالي نفسها.

تنفست كريستينا الصعداء:

- ما اغباني. لم احسب ان ذلك الابليس اللعين قادر على كل هذه الاعمال المنكرة.

احتضن يدها بين راحتيه:

- والآن، احب ان اتقدم منك واطلب يدك. هل تقبلين الزواج مني؟

صمتت كريستينا غارقة في بحر افكارها. ماذا تقول له؟ هل تقبل به زوجاً لها؟ انها حتماً تحبه، واكتشفت مع مرور الوقت وتوالي الأحداث انه رجل صادق، مخلص، حاولت عائلة براندون تلطيخ سمعته النظيفة. وماذا عن استعدادها للعيش والسكن في هذه الجزيرة الصغيرة؟ وكيف ستتولى شؤون منزل بهذه الضخامة؟ ثم، قبل كل شيء، هل يحبها كما تحبه؟ قطع ديفلين سلسلة افكارها:

- اني انتظر جواباً واضحاً وصريحاً. واؤكد لك ان حبي لك صادق وعميق، ونابع من اعجابي بشخصيتك وذكائك وقدرتك على تحمل المصاعب.

عادت لورنا تحمل اكواب المرطبات. انتهزت كريستينا الفرصة لتعلن موافقتها:

- لورنا، ديفلين يريدني ان اكون زوجة له، وقد قبلت. ما رأيك؟

اجابت لورنا مغتبطة:

- هذا اسعد نبأ سمعته منذ زمن طويل.

غمغم ديفلين بعض الكلمات الغامضة. ثم رفع يد كريستينا وضمها الى صدره.

وكانت الشمس ترسل اشعتها عبر النافذة، فتغمر الغرفة

بنور متوهج، متألق وكأنها تعلن عن ابتهاجها بالنبأ السار، وتتمنى لهما حياة سعيدة، هنيئة.